

د. محمد جاب الله
حكايات
الشاهد الأخير
2
أصدقائي
الموتى
شكرا
دار إشراقة
ضياء
t.me/twinkling4


ضاد
t.me/twinkling4

حكاياتُ الشّاهد الأخير

أصدقائي الموتى.. شكرًا 2

د/ محمد جاب الله

المراجعة اللغوية : عبد القادر أمين

التنسيق الداخلي : ضياء فريد

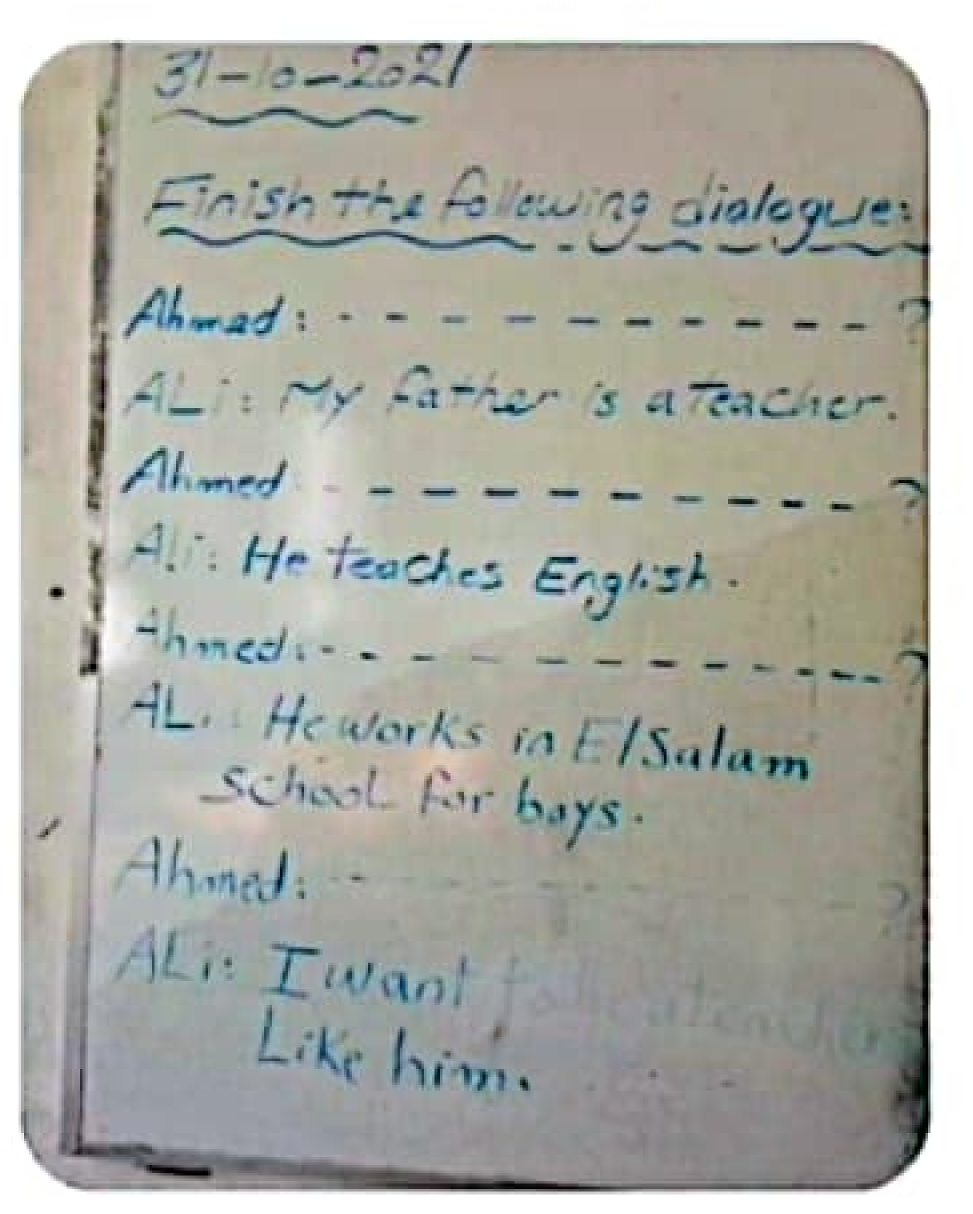
الطبعة الأولى :

2022م - 1444ه



إهداء





31-10-2021
Finish the following dialogue:
Ahmad: ----------?
ALi: My father is a teacher.
Ahmed: ----------?
Ali: He teaches English.
Ahmed: ----------?
ALi: He works in El Salam School for boys.
Ahmed: ----------?
ALi: I want
Like him.



الحصةُ الأخيرة

في رثاءِ خالي ومعلمي/ فاروق يوسف- رحمة الله عليه- (1967م - 2021م)، دقَّ جرس الحصة الأخيرة ليعلن انتهاءَ اليوم الدراسي وينصرف جميع المدرسين والطلاب، إلا إنَّ مَن حضر اللحظات الأخيرة مع (مستر فاروق) مدرس اللغة الإنجليزية أخبرونا أنه استأذنَ منهم ليتوضأ ويصلي، ثمَّ ليتفقَّد بعضَ الفصول؛ بصفته مشرفًا على الدور في هذا اليوم.

لا أحد يعلم ما الذي حدثَ تحديدًا بعد ذلك، إلا إنَّه من المؤكد أنَّ (مستر فاروق) قد تفقدَ الفصول.. حتى إذا دخل آخرها واطمئنَّ أن الجميع قد انصرفَ بسلام.. جلس ليفكر ويرتاح..

لقد انصرفَ من أمامه آلافُ الطلاب على مدار أكثر من 30 عامًا، بعضهم أصبح طبيبًا أو مهندسًا أو محاسبًا أو معلمًا، أو أيِّ شخص ذي شأن وقيمة.. إلا إنَّ مستر فاروق مازال باقيًا في الفصل حتى اللحظات الأخيرة، حيث يشعر بقيمته وحيث يبدع ويسمعه الجميع؛ حيث اعتاد أن يكون وجيهًا في الشكل.. مهابًا في الحضور.. شامخًا في الوقوف.. وسخيًّا في العلم. يضع رأسَه على الطاولة ويبدو أنه قد حانَ أن ينصرفَ هذه المرَّة، وبينما ينصرف الآخرون لمنازلهم يفضل هو الانصرافَ إلى خالقه من فصل المدرسة الذى شهدَ سخاءه بالعلم الذى يُنتفع

به، ولينصرف وحيدًا في هدوء بغير مرضٍ مُذل أو رياء في العمل.

بعضُ النهايات تخبرك كيف كانت حياةُ أصحابها.. وهذه النهاية تخبرك أنَّ صاحبها عاش منضبطًا ومتفانيًا وساعيًا للرزق الحلال حتى آخر لحظاته، وبينما يرحل الكثيرونَ من على فراشهم.. يرحل القليلون وهم يؤدّون واجبهم تجاه الخالق والخلائق.

حسِّن خطَّك.. المذاكرة مبتخلصش.. الراجل زيٍّ الست في خدمة بيته ومايبقاش عالة.. لا إله إلا الله محمد رسول الله.. كلمات قليلة أتذكرُها قد قالها لي طوالَ حياتي إلا إنَّها كفيلة بصنع شخصية وإنسان، ولا عجبَ أن تتناقل وسائلُ الإعلام خبر رحيله في مدرسته لتضجَّ ألسنة الآلاف بالدعاء له في عزاءٍ جماعي مهيب.

وداعًا خالي الحبيب، وأرجو أن تكون قد وجدتَّ الراحة والسكينة والتقدير في انصرافك الأخير.

ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

إلى خالي الحبيب.. أهديك هذا الكتاب.



دكتور مصطفى جاهين

رجلٌ في منتصف الأربعينيّات من العمر، متوسطُ القامة، هادئ الملامح، وذو شعرٍ أسود لم يقترب الشيبُ منه بعد، على الرَّغم من أنَّ ما سمعه ورآه كطبيب شرعي يشيب له الوِلدان. يرتدي نظارةً طبية بسيطة تخفي وراءها عينين تشعُّ منهما نظراتٌ حادة، وكثيرًا ما تسبَّبت له تلك النظرات في مواقف محرجة ظنًّا من الآخرين أنه يتعمَّد التحديق بهم، ولكنه بحكم العادة كطبيبٍ شرعي فهو يستخدم تلك العينين بنظراتها الحادَّة في معرفة ماذا أصابَ الأموات حيث لا مجال لاستخدام باقي الحواس؛ فالموتى لا يتكلمون، وبالتالي اعتادَ أن تكون نظراته هي وسيلتَه الأدقَّ في معرفة شخصية مَن يراه أمامه سواء أكان حيًّا أم ميتًا.

أمّا ملابسه، فهي بسيطة إلى أقصى حدّ، فهو لا يملك رفاهية الوقت للتأنُّق ومبدأه (الْبِس أيّ حاجة مكوية ومريحة)، أما عنِ الأناقة في حدِّ ذاتها فهو لديه عقدةٌ نفسية ومُتلازمة عجيبة، حيث اعتادَ أنه في اليوم الذي سيرتدي فيه طقم ملابس مكويًّا أو جديدًا، سوف تأتيه مأموريةُ تشريح تعصف بنظافةِ ورونق هذا الطقم، ولم يفلت من هذه المتلازمة ولا لمرة واحدة!

وأهمُّ ما يميز دكتور مصطفى جاهين هو حقيبتُه الجلدية الكلاسيكية التي يحملها في يده، وعندما تراه يحملها



في يده فحينها عليكَ أن تتوجَّس خيفة وتشعر بالقلق، فهذا معناه شيئان لا ثالث لهما.. إما أنَّ هناك جثة ستتعرض للمعاينة أو للتشريح، أو أنَّ شخصًا مازال على قيد الحياة ولكنَّه سيّئ الحظ حتى يحتاج إلى طبيبٍ شرعي ليوقِّع الكشف الطب الشرعي عليه عقب تعرُّضه لابتلاء في صحته أو عِرضه.

وحقيبةُ دكتور مصطفى، وعلى الرغم من بساطتها، إلا إنَّها تحوي كلَّ ما يلزمه كطبيب شرعي لأداء مهامه الأساسية.. فبداخلها أوراق مسطَّرة لكتابة الملاحظات، وشريط قياس مَرن بطول ثلاثة أمتار لأخذ قياسات الإصابات وأدوات الجريمة وأطوال الجثامين، ومصباح طبي صغير (تورش)، وبالتأكيد هناك مَشرط جراحي وكمامة طبية وبخاخ معقم صغير.

أمّا عن دكتور مصطفى كشخصية، فهو مزيجٌ عجيب من النادر أنْ تراه في هذه الأيام، فأثناءَ وجوده في العمل أو في المشرحة تشعر أنك أمام وحْش كاسرٍ أو كائن لا مشاعرَ له، يقوم بفحص الجثث بمنتهى الدقة، ويجول بمشرطه الجراحي في جميع أنحاء الجثمان بلا هَوادة أو تردد، ولكنه عندما يغادر العملَ والمشرحة فهو شخصٌ مرح إلى أقصى مدى، محبٌّ للزهور وللطبيعة، عاشقٌ للحلويات والعطور، وكأنَّ رؤيته للجثامين واعتيادَه على رائحة الموت جعلته في نفس الوقت يدرك النعمة



الكبيرة من الله في مظاهر الحياة والجمال مهما كانت صغيرة.

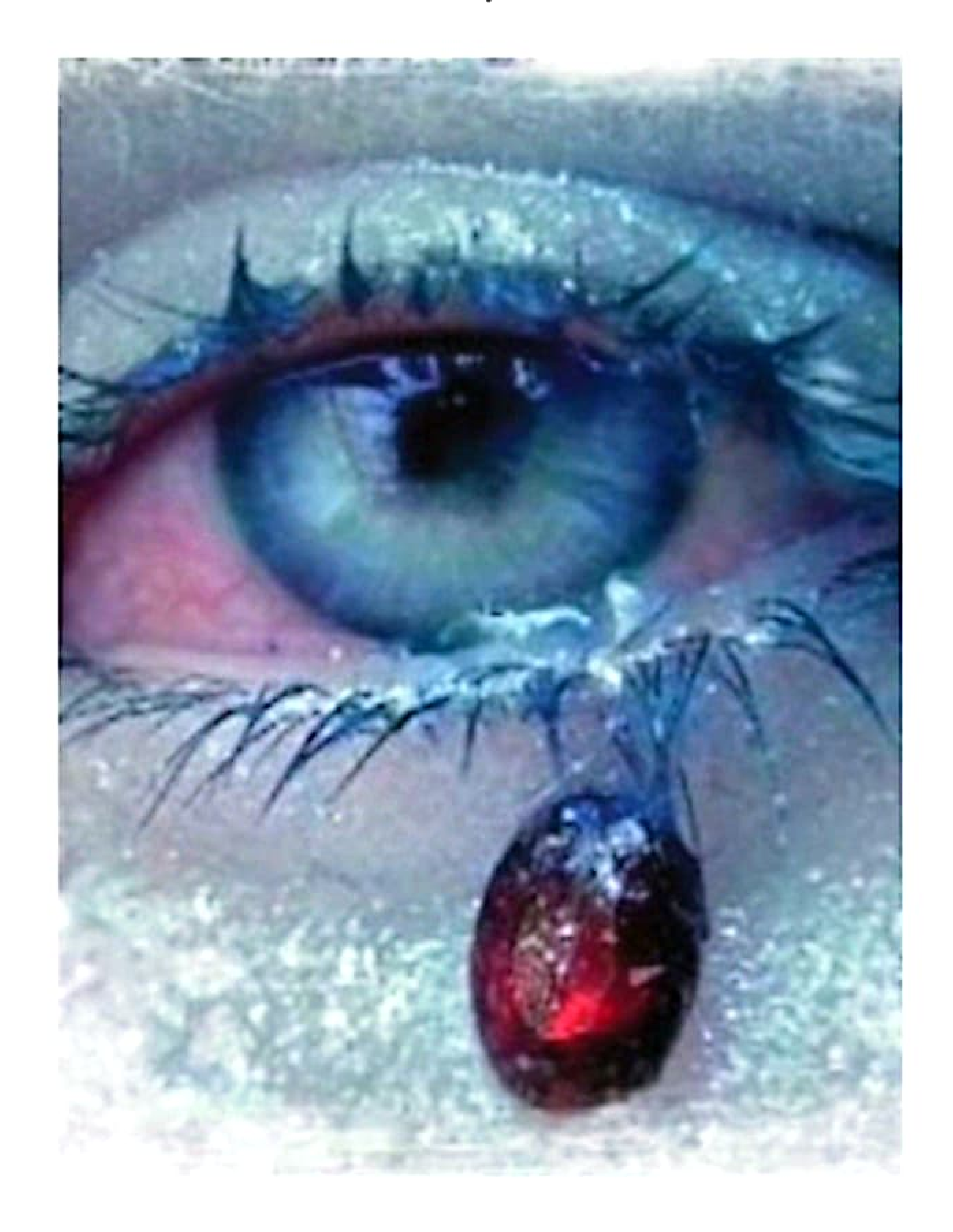
ومعَ اكتظاظ رأسه بكلٍّ تلك الأحداث المرعبة والمآسي التي يسمعها ويراها فهو شديدُ التكتم ونادر الحديث عنها وكأنه صندوقٌ أسود بَشري، ولكنه في نفس الوقت أيضًا يؤمن أنه لا ذنبَ للبشر العاديين في أن يعرفوا ما يعرفه، أو أن يعانوا مما يُعاني منه نتيجة لرؤيته لأسوأ ما يمكن أن تقدم عليه النفس البشرية.

والخلاصة من كلٍّ ما سبق.. أنَّ دكتور (مصطفى جاهين) هو شخص لن تودَّ أن تكون في مكانه أبدًا!



القضيةُ الأولى

(الانتقامُ البارد)





جروب واتساب الأطباء الشرعيّين الميدانيين ليس كأيٍّ جروب قد تراه في حياتك، ولا يضاهيه في التعقيد سوى جروب (الماميز) الخاصّ بمدرسة الأولاد حفظهم الله. هذا لأنَّ جروب واتساب الأطباء الشرعيين ما هو إلا صندوقٌ أسود مليء بالصّور والقضايا والتفاصيل التي تشيب لها الولدان.

وفي الحقيقة، مع كلِّ رسالة وصورة كنتُ أقرؤها على الجروب كنت أشعر أنه لا نهايةَ للانحطاط والشَّر الذي يمكن أن يصيبَ النفس البشرية، وكنت أتعجَّب من أن هناك شيئًا يمكن أن يثير غثياني واندهاشي بعد كلِّ هذه السنين من العمل في الطب الشرعي!

وخلال الفترة الماضية كانت كلُّ الرسائل في الجروب قد أصبحت تقليدية إلى حدٍّ كبير فيما عدا بعض الحالات الخاصة مثل (جرح طلق ناري شكله غريب).. (وسيلة جديدة للانتحار).. إلخ.

إلا إنَّ رسالتين متشابهتين في أسبوعين مُتتاليين من إدارتين مختلفتين للطبِّ الشرعي جذبت الانتباه بشدة:

الرسالةُ الأولى من طبيبٍ شرعي في إدارة الإسكندرية قال فيها: إيه رأيكم يا جماعة في الجرح الطعني ده؟ شكله غريب جدًّا.. زيّ ما يكون تم الطَّعن بجسم مدبَّب أسطواني الشكل.. هل سيخ تخين شوية؟ والجرح كان مليان ميّه والدم في تجويف الصّدر كان مخفف، وفي

سوائل كتير مدممة، وملابس الضحية مبلولة بالمياه!

الرسالةُ الثانية من طبيبٍ شرعي في إدارة كفر الشيخ: حالة غريبة معايا ومحتاج رأيكم فيها.. جرح طعني وتجويف الصدر مَليان ميّه بلون أحمر ومش دم.. وفي معاينة النيابة لموقع الحادث كان في ميّه بلون أحمر بجوار الجثة.. مكانش في دم متجلط، وملابس الضحية مبلولة بالمياه!

كانت الرسالتان تشير إلى إصابةٍ طعنية جديدة من نوعها لم نرَ لها مثيلًا في مجال الطب الشرعي في مصر، وعلى الفور قمتُ بالتواصل مع الزميليْن، وقاموا بإرسال صور التشريح لي.

كانتِ الإصابات الطعنية متطابقة.. دائرية الشَّكل بقُطر حوالي 3 سم، مما يعني أنَّ الأداة المسببة للإصابة ذات شكل أسطواني دائري، ومدبَّبة الطرف، وكذلك كانتِ الإصابتان رطبتين وممتلئتين بالسوائل المدممة، وحوافهما منتفخة وليست جافَّة، وذات حوافٍ مستوية كالإصابات الطعنيَّة المعتادة، أمّا ملابس الضحيتين فكانت مبتلة بالماء بصورة غريبة، خاصَّة في منطقة ما حول الجرح الطعني.

للأسف، ونتيجة أنَّ الإصابات ليست معتادة، ولحداثة خبرة الطبيبين الشرعيين؛ لم يقم أحدٌ منهما بأخذ عينات من الجروح الطَّعنية لفحصها ميكروسكوبيًا بواسطة



معامل الباثولوجي في المصلحة؛ حيث كان الفحصُ ربما يعطي انطباعًا عن الأداة المسبّبة لها. كانت الحالتان تحملان لغزًا كبيرًا، وكنت مشفقًا على الزميلين من عَناء البحث عن حل لهذا اللغز.. إلا أنه لم تمرّ فترة طويلة حتى أصبحتُ أنا جزءًا من اللغز نفسه!

لم يمرّ سوى أسبوع حتى وصلتْ للإدارة التي أعملُ بها إشارة من النيابة بطلب تشريحٍ لجثمان شخص وجِد مقتولًا داخل شقته، وتمَّ إسناد القضية لي، وكالعادة توجَّهت على الفور رفقةَ فني التشريح للمشرحة، وبمجرد رفع الغطاء عن الجثمان كانت المفاجأة.. الجثة بها نفسُ الإصابة الطعنية التي شاهدها الزميلان في الإدارتين الأخريين!

هذه المرَّة، قررت أنَّ الأمرَ سوف يتم وفقًا لأعلى درجات الحذر، وسوف أفعل كلَّ ما يتطلبه الأمر للخروج بأي أدلة ممكنة، ونظرتُ لفني التشريح عمّ (حسن)، وقلت له ضاحكًا بينما أرتدي القفازات الطبية: عنّك أنت المرَّة دي يا عم حسن.. أنت عليك الدماغ وأنا عليّا الباقي.

ضحكَ عمّ حسن وقال: الصلاة عالنبي.. الباشا بنفسه هيشتغل! ده الجثة دي حظّها حلو بقى ومتوصّي عليها!

رددتُ عليه ضاحكًا: مفيش جثة حظّها حلو يا عمنا.. لو حظّها حلو مكانتش وقعت تحت إيدينا.



وبدأت عملية الوصف الخارجي للجثة كالمعتاد.. الجثة لذكر متوسط البنية، قمحي البشرة، في حوالي أواخر العقد الخامس من العمر، ومحتقن العينين، والجثة في طوْر زوال التيبُّس الرمِّي، والرُّسوب الرمي بلوْن باهت بخلفية الجثة عدا مواضع الاتكاء، وعلى الجثة فانلة رجالي داخلية بيضاء بحمالات، وبأعلى يسار البدن الأمامي بمنطقة الصدر من الفانلة تبيَّنت وجود تمزق دائري الشكل بقُطر حوالي 3 سم، وعلى الفانلة تلوُّثات دموية، وتبينّا أنَّ الفانلة مبلَّلة بمنطقة الصدر، كما كان على الجثمان شورت رجالي أسود، وشورت داخلي أبيض اللون، وكلاهما خالٍ من التلوثات والتمزقات المشتبهة.

بالنسبة للجثمان، فقد وجدتُّ عليه علامات مقاومة وسحْجات وخدوش متفرِّقة بالذراعين، أما بالنسبة للجرح الطعني فتبينت وجودَ جرح منتفخ ومتباعد الحوافّ دائري الشكل بقُطر حوالي 2.5سم بيسار الصدر، وتبيَّنت أنَّ الجرح طعني نافذ، وهناك إفرازات مدمَّمة تخرج منه.

بالتَّشريح، تبيَّنت أن الجرح الطعني نفذَ بين الضِّلعين الرابع والخامس بيسار الصدر، وأحدث تهتكًا بكلٍّ من الفصِّ العلوي للرِّئة اليسرى، وتهتك بالبطين الأيسر للقلب، وتبيَّنت وجودَ سوائل مدممة غير متجلطة بالتجويف الصدري، وهو أمر غريب جدًّا حيث إنَّ من



المتوقع أن يكون الدمُ متجلّطًا في التجويف الصدري، خاصَّة لو كانت الإصابة حيوية وقد حدثت أثناء الوفاة!

بتشريح باقي أجزاء الجثمان لم يتبيَّن لي وجودُ أية إصابات أخرى تسبَّبت في الوفاة، فقمت بأخذ عينات من الدم والأحشاء للفحْص الخاص بالسموم والمخدرات، كما قمت بأَخْذ عينات من حوافٍ الجرح الطعني بكل من الجلد والرئة اليسرى والقلب، وقمتُ بإرسالهم للفحص المجهري لربما أجد أيَّ معلومة تفيدني بخصوص الأداة المسببة للإصابة.

وعقبَ الانتهاء من التشريح عدتُّ لمكتبي بالإدارة، وأنهيت بعضَ الإجراءات الورقية ومحاولة التركيز في تفاصيل القضية الغامضة، وتنبهت أنَّ هناك ثلاثة ضحايا تمَّ قتلهم بنفس الطريقة في فترةٍ زمنية وجيزة، وهذا الموضوع ليس مصادفة بالتأكيد، ومن المرجَّح أن القاتل واحد، ولكن ليس من المعتاد في مصر أن يكون هناك قاتلٌ متسلسل، وربما هذه المرةُ الأولى التي يحدث فيها هذا منذُ عملت بالطب الشرعي.

وطرأتْ في رأسي فكرة غريبة.. سأقوم بالاتصال بجهاتِ التحقيق في القضايا الثلاثة لمعرفة ظروف كلٍّ واقعة ومحاولة إقناعهم بأنَّ هناك رابطًا بين الجرائم لأنَّه من الواضح أنه لم يفكر شخص في هذا.

وبالفعل قمتُ بأخذ أرقام القضايا والتفاصيل من



زملائي، وقمتُ بالاتصال بالنيابة المختصة عن الجريمتين السابقتين وأبلغتهم بوجودِ جريمة مشابهة لديّ، وبالبحث في التفاصيل اكتشفنا أنَّ الثلاثة ضحايا كانوا في بعثة دراسية إلى كندا، وكانوا في نفس المدينة في نفس الفترة الزمنية!

كانت خيوطُ الموضوع قد بدأت تتَّضح، وقمت بالفعل بالاتصال بأحدِ السادة المستشارين بمكتب النائب العام لمحاولة التوصل لباقي التفاصيل، ومعرفة هل هناك ثمة أشخاصٌ آخرين أقاموا مع الضحايا في نفس المكان ونفس التوقيت، وربما يكون لهم علاقةٌ بجرائم القتل، ووعدني السيد المستشار بمحاولة الاتصال بالملحَق الثقافي في العاصمة المصرية في كندا والسفارة الكندية في مصر لتتبع أثرَ هؤلاء الأشخاص.

بالطبع كان من المتوقَّع حدوثُ بعض التأخير نظرًا لبطء الاتصالات الحكومية، وعدم وجود قرارات رسمية بخصوص الجرائم، وهذا التأخير في ظنّي كان سيؤدي إلى ظهور ضحايا آخرين قبلَ الإيقاع بالقاتل.

كلُّ ما كان باستطاعتي في هذه الأثناء هو محاولةُ استعجال نتائج تحاليل الفحص المجهري للعينات المأخوذة من جثمان الضحية الذي قمتُ بتشريحه، وبالفعل بعدَ حوالي أسبوع قمتُ بالاتصال بزميلي الطبيب في المعمل الطبي الذي تم إسنادُ فحص العينات إليه،



وكان الاتصال كالآتي:

أنا: صباح الخير دكتور حازم.. أخبارك إيه؟ طمني العيّنات ظهرت فيها إيه؟

دكتور حازم: صباح النور دكتور مصطفى.. العينات دي أنتَ جايبها من حدّ كان على قمة جبل إيفرست؟

رددتُ ضاحكًا: لا والله يا باشا لسّه معملوش إدارة تبعنا في ايفرست.. لما يعملوا إدارة هطلب اتْنقل هناك وآخد معايا لحافين ونصّ طنّ سحلب لزوم الدفا.

ضحكَ دكتور حازم وقال بجديَّة: حيث كده بقى عاوز أقولّك على مفاجأة.. فحص العينات أثبتْ وجود مظاهر حاجة عمرنا ما شفناها في مصر، بسّ موجودة في الدول اللي فيها جوّ بارد وثلوج.. مظاهر عضَّة التلج أو قضمة البرد (frostbite).

رددتُ باستغراب: ودي تيجي ازّاي للضحية بتاعنا!؟ ده الراجل لَقوه مقتول في بيته والجو دافي!

ردَّ دكتور حازم: طيب مثلًا لما جيتوا تشرَّحوه مكانتش الجثة متجمدة بفعل ثلاجة المشرحة؟

قلت له: لا خالص.. ثلاجة المشرحة عُمرها ما جمدت جثة.. دي آخرها تبريد بس!

قال حازم: يبقى مفيش احتمال غير إنّ أداة الجريمة



كانت ساقعة لدرجةِ التجمد.. يعني ممكن سكينة كانت في الفريزر.

رددتُّ باندهاش: شكل الجرح يا دكتور حازم مكانش ينطبق على سكينة.. طيّب حضرتك ملقيتش حاجة تانية في العينات؟

ردَّ حازم: لقيت حاجة غريبة.. الأنسجة كلها متشبِّعة بمياه والخلايا جواها مياه.. حاجة كده بنسميها (Hydrobic change) أو التغير المائي، وبتبقى الخلايا فيها مياه والأنسجة برضه، ودي نتيجة خَلل في تنظيم حركة دخول وخروج المياه والأملاح من وإلى الخلية والأنسجة الحية.. والمظهر المرضي ده مش بنشوفه إلّا في بعض الأمراض المزمنة، وغالبًا في الكبد والكلية.. إنما عُمرنا ما شفناها في الجلد.. الجلد في حالة الضحية كإنه كان مغمور في مياه.

قلتُ لدكتور حازم مؤكدًا: فعلًا ده اللي حصل.. كان في بَلل في ملابس الضحية وبقعة مياه كبيرة بجوار الجثة وكمية مياه غير معلومة المصدر جوه التجويف الصدري.

ردَّ حازم بحيرة: والله يا دكتور مصطفى الحالة محيِّرة جدًّا، وأنا قلت لك اللّي عندي.. وانتَ عندك كلّ المعلومات دلوقتِ، ولازم تربطها بالتحقيقات ومعاينة الشرطة لمسرح الحادث.. وربنا ينوَّر بصيرتك.



رددتُّ على حازم بامتنان: ألف شُكر على مجهودك.. تعبتك معلش، بسّ الموضوع مش سهل، والجريمة اتكررت 3 مرات.. وده معناه إنّ في قاتل متسلسل هيكرر الجريمة تاني.. عمومًا كتّر خيرك، وإن شاء الله هبلغك بالجديد.

أنهيتُ الاتصال مع دكتور حازم وقد زادتْ حيرتي بخصوص الأداةِ المسبِّبة للجريمة حيث إنَّ ما قاله حازم من وجود آثار عضَّة الثلج يعني أنَّ الأداة يجب أن تكون باردةً إلى درجة التجمُّد إلى درجة ما تحت الصفر، وهذا مستحيل في أيِّ أداة معروفة في مصر، كما أنَّ شكل الجرح لا يتَّفق وسكين، أو أيِّ أداة مشابهة، أمّا موضوع المياه في الخلايا والجرح فمعناه وجودُ مصدر للمياه في أداة الجريمة. ربّما كانت الأداةُ أنبوبًا معدنيًّا به مياه باردة أو مجمدة، ولكن أينَ الأنبوب ولماذا اختفى من مسرح الحادث، ومَن الذي سيتكبد عناءَ أخذ أنبوب ووضْع مياه وتجميد الأنبوب، واستخدامه في طعن المجني عليه!؟ هذه الأداة لا تقدِّم أيَّ ميزة؛ فهي ليست حادة أو مدبَّبة الطرف، وهي معدنٌ يمكن الكشف عن بصمات القاتل عليه بمنتهى السهولة.. إذًا الميزة التي اهتمَّ بها القاتل أن لا يتواجَد له بصمة على السلاح، ولا يوجد السلاح من الأصل في موقع الجريمة.

الحقيقة كنتُ قد أنهكت من العمل والتفكير حولَ



القضية، وقرَّرت أن أعود إلى منزلي والبدء من جديد في اليوم التالي للبحث في القضية، وبالفعل توجَّهت للمنزل فوجدتُ زوجتي قد قامت بتحضير الغداء وجلسْت على السفرة وحولي أطفالي (حمزة) و(حنين) و(حبيبة)، وعلى سبيل الفَضفضة قلت ممازحًا ابني حمزة: كابتن حمزة.. إيه اللي ساقع وممكن يبقى زي السكينة نقطع بيه اللحمة؟

قال حمزة ببراءة: سكينة ساقعة يا بابا.. مش محتاجة تفكير يعني!

ضحكتُ وقلت له: ما السكينة الساقعة.. سكينة برضه يا فالح!

ردَّت ابنتي (حنين) وقالت : فاكر يا بابا فيلم الرعب اللي مرضيتش تخلّينا نكمّل فُرجة عليه وقلبت على فيلم كارتون (علاء الدين)؟

نظرتُ لها باهتمام وقلت: أيوه فاكرُه.. اللي كان فيه تلج وناس بتقتل بعض وكده!

تدخَّلت ابنتي الأخرى (حبيبة) في الحديث وقالت: أيوه الفيلم ده فيه واحد قَتل الراجل الشرير بحتّة تلج شبه السكينة.

اندهشتُ من كلامها وأوشكت أن أتكلمَ إلا إنَّ زوجتي قاطعتنا وقالت: في إيه؟ إحنا على الغدا.. مينفعش



الكلام ده.. قتل إيه وسكينة إيه.. كله يبص في طبقه!

طبعًا بعد هذا التَّوجيه السامي من حرمِنا المصون توقفَ الجميع عن الحديث، واكتفيت بتبادل النظرات مع أطفالي فيما معناه (خلّوا اليوم يعدي)!

عقبَ الغداء لم أستطعِ الانتظار حتى بدأتُ في البحث عن نظرية بناتي عن الآلة التي كانت سببًا في مقتل الضحايا بفيلم الرُّعب، وبالفعل بدأتُ في تصفح الإنترنت باحثًا عن احتمالية أن يكون الثلج هو الأداةَ المستخدمة في قتل الضحايا، وكان هناك مقالات وأفلام بالفعل أشارتْ لذلك، وتبيِّن أنَّ الثلج أحيانًا يتكون على هيئة (أسياخ) ذات طرف مدبَّب يمكن أن تُستخدَم في الطعن ويطلق عليها باللغة الإنجليزية (Icicles).

كانت نظريًّا هذه هي الأداةَ المطابقة للأداة التي يمكن أن تُحدث الطعنةَ المشاهَدة في جثة الضحية.. فهي باردة تتسبب في عضَّة البرد المشاهَدة في الجرح، وسوف تذوب تلك الأداة بفعل حرارة جثمان المتوفَّى، وتتحول إلى ماء مسبِّبًا وجود ماء في مسْرح الجريمة، وفي التجويف الصدري، وفي الأنسجة حول الجرح الطعني، كما أنها مدبَّبة لتطابق السكين، وبالطبع لن تحمل تلكَ الأداة أيةَ بصمات لأنها ستختفي بفعل الذوبان.

ولكنْ عمليًّا فصناعةُ أداة قاتلة مدبَّبة من الثلج يتطلب



خبرة ومهارة لا تتوفر عندَ شخص عادي، ولكنها تتوفر في شخص معتاد العمل على الثلج وتشكيلاته، ومِن المستبعد أن يكون ذلك الشخص مقيمًا في مصر، ولكن يتطلب الأمرُ التواجد في بيئة باردةٍ ومعتادة على وجود الثلج، وفنِّ النحت على الثلج، وكلّ تلك المؤشرات تشير بما لا يدع مجالًا للشك أن للأمر علاقة بكندا حيث كان يعيش الضحايا!

في اليوم التالي، ذهبت لوكيل النيابة المسئول عن القضية مباشرة، وما إن دخلتُ مكتبه حتى قلت: صباح الخير معالي المستشار.. عندي ليك خبر مهم!

نهضَ وكيل النيابة ليصافحني وهو متهلِّل، وقال: صباح الورد معالي الطبيب الشرعي.. إيه.. عرفت مين القاتل؟

ضحكتُ بصوت عالٍ وقلت: لا مش للدرجة دي.. بسّ ممكن اقولك حاجات تقربنا منه كتير.

ظهرَ الاهتمام على وجهه وقال: يا ريت والله يبقى كتّر خيرك.

قلتُ بمنتهى الجدية: أداة القتل عبارة عن سِيخ أو رمح صُلب مصنوع من التلج مش من الحديد.. تمَّ تشكيله على هيئة جسم مدبَّب أقرب للرُّمح.. استخدم في القتل، وكلّ الشواهد الطبية والمعملية عندي بتقول كده.



بدَا الاندهاش على وجه وكيل النيابة وقال: مين اللي فاضي يعمل كده؟ ما كان يستخدم سكينة واللا مطواة وخلاص؟

قلتُ له موضِّحًا: ده شخص مُحترف في تشكيل التلج، ومش عاوز يكون في بصمات على سلاح جريمة.. باختصار مش عاوز أصلًا وجود لسلاحِ جريمة لأنَّ سلاح الجريمة في حالتنا ساح لأنَّه تلج.

زادتْ دهشة وكيل النيابة وقال: طيب مين اللي ممكن يعمل كده؟

قلتُ له: شخص كان في كندا معَ الضحايا وكان على صلة بيهم.. غالبًا في تار بينهم أو حصل مشكلة بينهم هناك.. ولما رجعوا.. رجع مصر وراهم، وابتدى في قتلهم.

قال وكيل النيابة متَّفقًا: علشان كده لازم نعرف مين اللّي كان في كندا مع الضحايا، وإمتى، ورجع مصر إمتى.. أنا هستعجل حالًا الاتصالات معَ السفارة في كندا، وسفارة كندا في مصر علشان نوصَل لحاجة، وهعمل استعلام في الجوازات بتحركات الضحايا من وإلى كندا.

قلتُ له وأنا أستعدُّ للانصراف: جميل جدًّا.. أنا هبدأ في كتابة التقرير، وهنتظر منّك أي معلومات تفيدني وأي



جديد.

وعلى الفور غادرتُ النيابة وتوجَّهت لمقرِّ عملي بإدارة الطب الشرعي، وبدأتُ في إعداد التقرير الطبي الشرعي ولكن تركت بندَ (الرأي) في النهاية لحين انتهاء اتصالات وكيل النيابة لربما تُسفر عن معلومات موثقة تساعدني في إثبات نظرية القتل باستخدام أداة ثلجية مدببة.

مَرَّ حوالي أسبوع على لقائي بوكيل النيابة، وفجأة جاءني اتصالٌ منه فأجبتُ الهاتف قائلًا: أيوه معالي المستشار.. إيه الغيبة الطويلة دي.. عرفت لنا مين كان في كندا مع الضحايا؟

جاوبني وكيلُ النيابة بضيق قائلًا: اعذرني يا دكتور.. أيوه للأسف عرفنا مين كان في كندا مع الضحايا.. وعرفنا مين القاتل.. بسّ بعد ما ساب لنا جثة جديدة!

نزلَ الخبر عليَّ كالصاعقة، وسألته مندهشًا: جثة جديدة! إزاي.. وفين؟ والقاتل راح فين؟

جاوبني وكيل النيابة باقتضاب: علشان كده بكلِّمك.. يا ريت تعدّي عليّا في النيابة ومعاك فني التشريح علشان هننزل معاينة في مسرح الجريمة في شقة القاتل.. هنشوف الجثة وتعاين معانًا محتويات الشقة، يمكن نلاقي حاجة تربط القاتل بسلاح الجريمة اللي قلت



لي عليه.

أنهيتُ الاتصال مسرعًا، واصطحبت فنّي التشريح والسائق إلى النيابة، ثمَّ اتجه الفريق كاملًا إلى أحد الأحياء السكنية حيث توقَّفنا أمام عمارة وصعدنا السلم إلى الدور الثالث لنجد حراسةً على مدخل إحدى الشقق، والتي ما إن اقتربنا منها حتى شممنا رائحةً كريهة منبعثة من داخلها.. فقال فنّي التشريح بتلقائية: جثة متحللة تاني.. ارحمنا يا رب!

وبالفعل ما إنْ دخلنا الشقة حتى تبينّا وجودَ بعثرة في محتوياتها، وتبينّا وجودَ جثة في حالة تعفن رمي تنبعث منها رائحة كريهة، ويبدو أنَّه مَرَّ نحو ثلاثة أيام على الوفاة، وكان الضيقُ والاشمئزاز قد ظهرَ على المتواجدين، فقلت لوكيل النيابة : تسمح لي أفحص الجثة؟

قال وكيل النيابة: اتفضَّل حضرتك، يا ريت لو في أيّ معلومة تفيدنا تبلّغني بصورة فورية، وبيني وبينك لأنّ المجني عليه اتضح إنه ابن مسئول حكومي، ومش عاوزين أيّ شوشرة.

قمتُ على الفور بتفحص الجثمان وما حوله، وتبيَّنت وجود جرحٍ رضي وتهشم بمقدمة الجمجمة، مع وجود تهتك في المخ، كما تبيَّنت وجودَ علامات عنفٍ ومقاومة على أجزاء متفرِّقة من جسده، وقمتُ بإخبار وكيل النيابة



بالمعلومات وأكدت أنه ينبغي تشريحُ الجثمان للوصول لسبب الوفاة بصورة قاطعة.

وعقبَ ذلك قمت بالتجولِ في الشقة رفقةَ الأدلة الجنائية ووكيل النيابة، وكان كلُّ ما نراه يحمل إجابات على أسئلتنا، ولكن إجابات متأخرة كثيرًا!

الشقة كانت تخصُّ مهندسًا مصريًّا يبدو أنه كان في منحةٍ دراسية في كندا، ويبدو من الصور أنه تزوَّج سيدة كندية، وصورهما في مصر وكندا تعبّر عن مقدارٍ كبير من الحب والسعادة، كما أنَّ هناك صورًا تشير إلى أنَّ هوايته كانت المشاركة في مسابقات النحت على الثلج في كندا، وبالفعل كان ماهرًا في هذا.

وبتفتيش الشقة وجدنا عدةَ أدوات وقوالبَ لصناعة الثلج وتشكيله، وأحدُ هذه القوالب كان يحمل شكلَ الرمح، وكان مزودًا بغطاء عازلٍ للحرارة، ويبدو من تركيبه أنه مصمَّم ليكون محمولًا، ومزوَّدًا بمبرد للحفاظ على المحتويات من الذوبان، وتبينا وجودَ مقابض سيليكون بجوار آلات صنع وتشكيل الثلج.

كانت كلُّ المشاهدات تشير إلى أنَّ صاحب الشقة هو القاتل، ولكن لم يكنْ معروفًا ما سببُ تلك الجرائم الوحشية.

قبلَ مغادرتي الشقة توقَّفت مع وكيل النيابة لمناقشة



أحداثِ القضية، وأخبرني أنَّ المشتبه به صاحب الشقة قد غادر البلاد بالفعل قبلَ ثلاثة أيام عقبَ حدوث الجريمة مباشرة، وأنَّ الضحية يبدو أنه عرف أنَّ للمشتبه به علاقة بمقتل الضحايا الآخرين، وجاءَ لكي يتخلَّص من صاحب الشقة، وكان بحوزته مسدس، ولكن أسباب الخلاف بين الضحايا والمشتبه به في قتلهم غير معروفة بعد.

عقبَ ذلك قمتُ بالعودة للإدارة وأنا يعتصرني الحزنُ على نهاية القضية بهذا الشكل المؤلم، حيث فَقَدَ أربعة من الضحايا حياتَهم نتيجة عملٍ إجرامي وحشي، ومع الأسف هرب القاتل قبل أن يلقى عقابه.

وما إن دخلتُ إلى الإدارة حتى وجدتُّ العامل بالإدارة يناولني مظروفًا مغلقًا، ويقول لي: الظرف ده لقيته تحت عتبة باب الإدارة من 3 أيام، بسّ أنا كنت تعبت ومجيتش علشان كده اتأخَّرت على ما جبتهولك.

باستغراب أخذتُ الظرف وقرأتُ ما عليه، وكان مكتوبًا عليه (عناية الدكتور مصطفى جاهين)، وفي البداية اعتقدت أنه يخصُّ إحدى النيابات أو المراسلات الرسمية، إلا إنَّني بمجرد فتْح المظروف وإخراج ما به من أوراق اقشعرَّ بدني من هول ما قرأت.. لقد كان بشعًا بكلِّ ما تحمل الكلمة من معنى!

الورقةُ الأولى كانت مكتوبة بالكمبيوتر، ومكتوبٌ بها



ما يلي: عزيزي الطبيب الشرعي.. بينما أنا في طريقي إلى خارج البلاد.. أصبحت أنتَ تعرف بالفعل كيف قمتُ أنا بقتل مَن اعتبرتهم أنت ضحايا.. ولكنك لا تعرف لماذا قتلتهم.. لقد تركت لك صورة ضوئيةً من خطاب الانتحار الذي كتبتْه زوجتي قبلَ انتحارها منذ ثلاثة سنوات.. خطاب زوجتي مكتوب باللغة الفرنسية.. وفي حال لم تكن تعرفُ الفرنسية.. فسأحكي لك ما حدث..

كنت كأيٍّ شابٍّ مُبتعث إلى الخارج أحلم بمستقبل باهرٍ وحياة سعيدة، وأخطط للاستقرار في كندا حيث كل شيء ينبئ بمستقبل باهر.

في البداية تعرَّفت على زوجتي وقد كانتْ زميلتي في الجامعة.. رأيت فيها الإنسانة التي حلمت بالارتباط بها والزواج منها.. كانت جميلة ورقيقة، والأهمُّ أنها كانت مُنفتحة على ثقافتي الشرقية وخلفيتي الدينية، وكانت مقبلة بشكل مُذهل على كل ما يخصني. وبالفعل تزوَّجنا بعد سنتين من وجودي في كندا، وكانت حياتنا في قمة السعادة والهدوء، وما زادها روعةً أن زوجتي أصبحت حاملًا في طفلنا الأول، ولكن للأسف حدثَ ما لم يخطر في الحسبان.

كنتُ وزوجتي على علاقةٍ بالجالية المصرية في المدينة التي نسكن بها في كندا، وكان من ضمن الجالية أربعة من الشباب المبتعثين، وكنتُ على علاقة وثيقة بهم،



ولم ألقَ منهم إلا التعامل المحترم كعادة تلك الفئة من المغتربين المصريين.

ولكن في أحد الأيام تلقَّيت اتصالًا من أسرتي في مصر تبلغني أنَّ والدتي في مرض شديد وتطلب رؤيتي بصورة عاجلة، وعلى الفور أخبرتُ زوجتي بضرورةِ سفري إلى مصر لرؤية والدتي المريضة، وبالفعل جئت إلى مصر في أجازه قصيرة ولكن قدرُ الله قد نفذَ وتوفّيت والدتي عقب وصولي مصر بوقت قصير.

وفي تلك الأثناء تلقَّيت اتصالًا من صديقة زوجتي تخبرني فيه بوفاة زوجتي في حادثِ سيارة حيث سقطت سيارتها من فوق إحدى الطرق الجبلية على أطراف المدينة. لم أصدقْ ما سمعت وعُدتُّ فورًا إلى كندا وتوجَّهت إلى حيث يوجد جثمان زوجتي لأجدها جثةً هامدة متفحِّمة بفعل احتراق سيارتها بفعل الحادث، وأدركت أنَّ زوجتي حقًّا قد ماتت هي وطفلي الذي كان في أحشائها، وانهارت حياتي كاملة.

عدتُّ إلى منزلي وأنا غير مُصدق لما حدث.. وما إن دخلت المنزل حتى وجدتُّ الخطاب المشئوم الذي كتبته قبل وفاتها.. وللأسف اتَّضح أنه خطاب انتحار!

حبّي الأول والأخير عادل، لا أستطيع أن أواجهَك أو أن أواجهَ العالم بعدما حدثَ معي، لقد قام أصدقاؤنا الذين وثقنا بهم بأبشع ما قد يقوم به أحدٌ تجاه أصدقائه..



لقد قاموا باغتصابي عقبَ دعوتي لحفلة بمناسبةِ عيد ميلاد أحدهم.. نعم أصدقاؤنا (فريد) و(علي) و(فادي) و(عماد)، أخبروني أنه عيدُ ميلاد (فريد) وأنني يجب أن أحضر، وعند حضوري قاموا بتقديم المشروبات لي، وبعدها لم أشعرْ إلّا وهُم يقومون باغتصابي بوحشية، ولم يرحموني أو يستمعوا إلى توسلاتي، لم يسمعوني عندما ذكّرتهم أنّي زوجة صديقهم، كانوا كالوحوشِ الكاسرة، خرجت من المنزل لا أصدِّق ما حدث، لماذا فعلوا هذا؟ أعلم أنكَ لن تصدقني، وستلقي عليَّ اللوم لأنني ذهبت معهم.. ولكنهم أصدقاؤك وأصدقائي فكيف لا أثق بهم؟ أخبروني إنْ أخبرت الشرطة فإنَّ ذلك سيمثل عارًا لك، وأنهم سيقولون إنَّ هذا كان بكامل إرادتي.. لا أستطيع استيعاب ما حدث.. ولكنّي أعلم أنَّ حياتي قد انهارت وأنك لن تصدقني، وأنّي قد جلبت لك العار للتَّو.. سامحني على ما سأفعله ولكنني لا أستطيع العيشَ بهذا الإحساس.. سأتخلص من هذا الإحساس ومِن حياتي كلها، وأرجو أن تسامحني، وتتذكر تلك اللحظات السَّعيدة التي عشناها سويًّا.. زوجتك المخلصة (آن).

هذا ما جاء في الخطاب لتعلم أنَّ مَن قتلتهم لم يكونوا ضحايا، ولكن كانوا وحوشًا آدمية.. لقد استغلّوا غيابي وخانوا ثقتي ولم يحترموا حرمةَ زوجتي والعِشْرة بيننا، عقبَ قراءتي لخطاب زوجتي.. انطلقت كالمجنون إلى مركز الشرطة وعرضت عليهم الخطابَ وتقدَّمت ببلاغ



رسمي.. على الفور قامتِ الشرطة بالبدء في التحقيق، وأعادوا تشريح جثمان زوجتي ولم يتوصلوا لشيء نظرًا لسوء حالة الجثمان المحترق بفعل الحادث، وأخبروني أنَّ خطاب زوجتي ليس دليلًا كافيًا لإدانة المجرمين، فقمت بتصعيدِ الأمر والمطالبة بتفتيش الشقة محلِّ الجريمة واستجواب المشتبه فيهم، وقامتِ الشرطة بذلك ولم تتوصل إلى شيء.. وفي النهاية كلُّ ما قالوه أنه سيتمُّ استبعادُ الأربعة مجرمين من كندا نظرًا لأنَّ المجتمع المدني في المدينة أصبح لا يتقبل وجود مُشتبه بهم بين العائلات!

تخيَّل كل ما ناله هؤلاء المجرمون هو أنهم تركوا كندا وعادوا إلى مصر.. لم يُعاقَبوا على فِعلتهم الشنيعة، وليس معي دليل مادي حيٌّ على جريمتهم؛ احترق الدليلُ باحتراق زوجتي وطفلي، واحترقَ معهم قلبي ودُمّرت حياتي.. وقرَّرت ألا أدع المجرمين يفلتوا بجريمتهم، وانتظرت حتى هدأتِ الأمور وعدتُّ إلى مصر مُخطِطًا للانتقام.. وأن أقوم بتنفيذ العدالة بيدي وحماية المجتمع من هؤلاء الوحوش.. وخطَّطت لكلِّ شيء بمنتهى الدقة، وصنعتُ سلاحي الثلجي الذي لا يمكن كشفُه، ولا ترك بصمات عليه، وكدتُّ أنجح في خطتي لولا أنك ربطتَّ كطبيب شرعي للأحداث، وتوجيه النيابة للتقصّي حول القتلى وعلاقتهم بي.. مما جعلَ القتيل الأخير يدرك أنّي الفاعل، وباغتني في شقتي وحاولَ قتلي بمسدس، ولكني



هشَّمت رأسه وانتقمت لزوجتي واستطعت الهرب.

في النهاية، أعلم أنك قد قمتَ بواجبك على أكمل وجه، ولا ألومك على هذا، ولكنّي أيضًا قمت بواجبي وانتقمت لزوجتي ولشَرفي، لقد سلبوني زوجتي وطفلي وحياتي بأكملها، ولا أشعر بالندم مطلقًا تجاه ما قمت به.

وسببُ اعترافي لك أنني أعلمُ أنك ستشعر ما بداخلي كطبيبٍ شرعي رأى وشَعَر بما حدث للجثث، لقد شممت رائحة جثة زوجتي المحترقة مثلما تفعلُ أنت، ورأيت هولَ ما حدث لها مثلما ترى أنت.. أنت وحدك ستشعر ببشاعة ما عانت منه زوجتي أثناءَ اغتصابها وبعدَ موتها، وأنت مَن ستشعر بفاجعة فقدي لزوجتي وطفلي.. لا أحد غيرك سيشعر بما شعرت به.. ورجائي الوحيد منك أن يظلَّ هذا الخطاب سرًّا بيننا فأنا أعلمُ أنك تجيد الحفاظَ على أسرار الموتى.. وأسألك أن تدعو لي بالمغفرة والراحة من العذاب الذي أعيش فيه.. وداعًا!

انتهى ما بداخل الظرف من سرْد للقصة المأساوية التي فطرتْ قلبي، وفي كلِّ قضية كمثل هذه القضايا اكتشف أنني لم أعتدْ بعدُ على حقارة ودناءة ما يمكن للبَشر أن يفعلوه، وكنت- ومازلت- أتعجب من قدرتي على الاندهاش.. لم يكن ما بداخل الأوراق سيفيد بأيِّ حال من الأحوال في سيْر القضية، وكنت في غنى تامٍّ عن



أية مشكلة قد تحدث لو أرسلت هذه الأوراق إلى جهاتِ التحقيق.. فجهاتُ التحقيق تعلم بالفعل مَن القاتل وكيف قتل ومَن قتل، ولا يهمها الدافع وراء الجرائم.. القانون لا قلب له.. القانون لا يعترفُ إلا بالأدلة.. والدليلُ الوحيد على الجريمة التي ارتكبها القتلى في كندا قد احترق باحتراق المرأة الضحية.. وكذلك ينبغي أن تحترقَ تلك الأوراق. قمتُ بالفعل بإحراق تلك الأوراق ليظلَّ النظر في الجريمة معلّقًا إلى يوم القيامة!

عدتُّ إلى منزلي وأنا في قمةِ الاكتئاب والحزن، وما إن دخلتُ منزلي حتى وجدتُّ ابنتي حنين تلقي نفسها في حضني وتسألني هامسة: عرفت المجرم قتل التانيين إزاي؟

ابتسمتُ وقلت بصوت منخفض: أيوه عرفت، زيّ ما قلتِ بالظبط.

شعرتْ حنين بالزهو وقالت: على كده مسكتوا المجرم الوِحش ده؟

قلتُ لها بصوت منخفض أيضًا: لا ما مسكنهوش.. لسّه منعرفش مين المجرم بالظبط.. لما نعرف المجرم هنمسكه.

همستْ حنين باندهاش وقالت: مش المجرم هوّ اللي بيقتل.. امسكوا اللي قتل وخلاص.



ابتسمتُ وقلت لها: المجرم مش بسّ اللي بيقتل.. فيه مجرمين مش بيقتلوا بسّ بيعملوا حاجات وحشة كتير.. بكره لما تكبري هتعرفي كل حاجة.

ابتعدتْ حنين بسرعة وهي لا تفهم مغزى كلامي.. وحمدتُّ الله أنها ابتعدتْ حتى لا ترى دموعي التي غالبتني عندما تذكرت تلك القضية مرة أخرى!



التَّطهير

بعدَ حادثة سحْل الفتاة (مريم) في المعادي بغرض سرقتها مما أدَّى إلى وفاتها، لا أجدُ إلا أن أكتبَ لماذا ينبغي أن يتم معاقبة مثل هؤلاء الجناة بالإعدام فقط لا غير.

كطبيبٍ شرعي من ضمن مهامٍ وظيفتي أن أحضرَ تنفيذ حكم الإعدام في المدانين للتأكد من وفاتهم، ويحضر تنفيذَ الحكم طبيبُ السجن ووكلاء النيابة ومأمور السجن



ورجال الدين.

أعترفُ أنَّ المرة الأولى التي حضرتُ فيها تنفيذَ حكم الإعدام تركتْ في نفسي أثرًا قاسيًا ورهيبًا.. بداية لم أنم في الليلة السابقة من القلق والخوف، وكوني ينبغي أن أستيقظَ فجرًا لحضور تنفيذ الإعدام في ساعات الصباح الأولى.

أمّا بالنسبة لمشهد تنفيذ الإعدام، وتلاوة الحكم على المدان، وتلقين رجلِ الدين له للشهادتين إنْ كان مسلمًا، والعظة إن كان مسيحيًّا.. فذلك أمر آخر.

لحُسن حظي أنَّ مَن حضرت إعدامهم كانوا متَّهمين في قضايا جنائية كالقتل العمد والسرقة المقترنة بقتل والاغتصاب وغيرها،

كان المدانون يَحضرون لغرفة الإعدام وهُم في قمة الهدوء، ولم ينكرْ أحدهم التهمة الموجهة إليه أو يتهرب منها.

من الصَّعب أن تشاهد شخصًا على قيد الحياة، ثمَّ في اللحظة التالية تشاهدُه وهو يموت، ثم تلمسُه وتفحصه للتأكد من أنه قد فارقَ الحياة!

وأعترف لكم اعترافًا لم أبحْ به من قبل.. إنَّني أغلق عيني لحظةَ تنفيذ الحكم حتى لا أرى جسدَ المدان وهو يسقط، ولكن للأسف لا يمكنني إغلاقُ أذني حتى لا



أسمع صوتَ فرقعة انكسار عنقه بفعل الشنق.

هي لحظاتٌ رهيبة أعيشها كلَّ مرة، ويتحوَّل يومي عقبَ ذلك إلى ساعات كئيبة أفقدُ فيها القدرةَ على الاستمتاع بأبسط متع الحياة سواء الأكل أو الشرب.

ولكنْ عقبَ المرة الأولى كان ينبغي أن أجدَ حلًّا للخروج مما أنا فيه، وبالفعل وجدتُ الحل.. هو أن أتذكر ما عاناه ضحايا هؤلاء المجرمين في لحظاتهم الأخيرة، وما جعل هؤلاء المجرمين يستحقّون حكم الإعدام بلا رحمة أو شفقة.

تذكرتُ تلك الطفلة التي تمَّ خطفها واغتصابها وقتلها وتشويه أعضائها التناسلية، ثمَّ قتلها انتقامًا من والدها.. لا عقاب للجاني سوى الموت !

تذكرتُ تلك الفتاة التي اسْتدرجها مَن وعدها بالزواج ثمَّ قام بخنقها وسرقتها، ولم يكتف بذلك، ولكن نزع عنها ملابسها عقب وفاتِها لإيهام الشرطة أنها قضيةُ شرف، ولكنها كانت عذراء طاهرة.. لا جزاء يستحقه الجاني سوى الموت!

تذكرتُ ذلك الرجل الذي سمَّمته زوجته بمساعدةِ عشيقها وأجهزتْ عليه دونَ شفقة ولا رحمة لتحرم أطفالها من أبيهم.. لا جزاءَ لها إلا الموت!

عشراتُ الجرائم التي قام بها هؤلاء الجناة.. نفَّذوا



حكم الإعدام في ضحاياهم بلا شفقة ولا رحمة.. بلا محاكمة عادلة أو حتى سببٍ مُقنع.. بلا فرصة للضحايا أن يلفظوا الشهادةَ أو يستغيثوا أو حتى أن يدافعوا عن أنفسهم أو يودعوا أحباءهم.

بينما حظيَ هؤلاء الجناة بمحاكمةٍ عادلة.. وحكم ابتدائي ونقض واستئناف وغيره.. استمتعوا بالحياة لشهور إضافية.. ودّعوا أحبّاءهم، وامتلكوا الفرصة للتوبة ونطق الشهادتين.. رائحةُ دماء الضحايا وصرخاتُ أسرهم المكلومة لا تفارقُ ذاكرتي وملامحهم تتمثل أمامي أينما ذهبت.

فقط عندما فكرتُ في الموضوع بهذه الطريقة لم أعدْ أجد الرهبةَ أو الحزن عند حضور أحكام الإعدام؛ لأنها من وجهة نظري أصبحتِ الوسيلة الوحيدة لتطهير المجتمع من أمثال هؤلاء القتلة!

إنَّ إعطاء فرصة أخرى لقاتلٍ حتى يخرج للمجتمع ولو بعدَ حين وانقضاء عقوبة السجن؛ هو إعطاءُ فرصة له لتكرار جريمته مرة أخرى، بل وتشجيع لضعاف النفوس حتى يقلدوه في جرائمه.

إنَّ المجتمع لن ينصلح حالُه إلا بإعدامِ القتلة والمغتصبين وأمثالهم، ولن ينصلح حالُه إلا بالتعليم والتربية ونشْر ثقافة العقاب العادل والفوري.



قال تعالى: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" صدق الله العظيم.



القضيةُ الثّانية

(الرجلُ الثاني)





كانتِ الساعة التاسعة صباحًا في مكتب إدارة الطبِّ الشرعي، وكنتُ- كعادتي- متواجدًا على مكتبي مبكرًا في ذلك الصباح شديدِ البرودة عقبَ توصيلي لأطفالي إلى مدارسهم، ولم يكنْ في الإدارة سواي والسيد الدكتور مدير الإدارة وعددٍ قليل من الإداريين.

ولكنْ ما لم يكن معتادًا هو تواجدُ زميلي الأحدث تعيينًا؛ الطبيب الشرعي (خالد الشناوي) في مثل هذا الوقت المبكر، حيث اعتدْنا حضورَه للمكتب يوميًّا في حوالي الساعة العاشرة صباحًا، واعتقدنا ربما أنه لم يعتدْ أجواء العمل بعد نظرًا لكونه حديثَ العهد بالعمل معنا.

ليس هذا فحسب، ولكن (خالد) كان في اجتماع مُغلق مع السيد مدير الإدارة لمدَّة لا تقل عن النصف ساعة، واعتقدت أنه ربَّما كان لديه ما يُراجعه من قضايا مع مدير المكتب، فهذا شيء معتاد في مثل هذه الأحوال.

لم تكد تمرُّ ساعة على حضوري للمكتب حتى وجدتُّ مدير الإدارة يستدعيني إلى مكتبِه للأهمية، وقد كان أمرًا غريبًا أن يَستدعيني عقبَ انتهاء اجتماعه مع زميلي مباشرة، ولكني لم أحاول ربطَ الأمرين ببعض، وإن كنت قد اكتشفت فيما بعد أن الأمريْن على صلة وثيقة للأسف.

وما إنْ دخلت مكتبَ مدير الإدارة حتى ألقيت تحيةَ الصباح وتبادلنا بعضَ كلمات الدعابة والمجاملة، قبل أن



يقول لي مدير الإدارة: ما لك يا مصطفى؟ شادد حيلك على الجدع الصغير ليه؟

فوجئتُ بسؤال المدير لي، وكنت أعلم أنه يقصدُ زميلي (خالد)، فقلت محاولًا استيضاح الأمر: خير يا كبير؟ إيه اللي حصل كفى اللهُ الشَّر؟ لا شادد حيلي ولا حاجة.

أجابَ المدير في لهجة أكثرَ إصرارًا: والله اللي (خالد) بيقوله غير كده خالص، بيقول إنك لما بتراجع وراه أيّ تقرير بتطلّع له أخطاء كتير، وبتحسِّسه إنّ طريقته في إعداد التقارير دون المستوى.

زادَ اندهاشي بسبب ما أسمعه، خاصّة أنني كنت أعامل زميلي (خالد) بكلِّ احترام وإخاء، وكنت أوجِّهه بكل لطف لكيفية إعدادِ تقاريره الطبية الشرعية بما يليق ويتناسب معَ خطورة تلك التقارير، كما أنني لم أوجِّه له يومًا أية عبارات تقلل من شأنه، بل بالعكس كنت أشجِّعه وأحاولُ مساعدته على التخلص من الرَّهبة المعتادة التي تصيب كلَّ من يمارس الطب الشرعي.

حاولتُ استدراك الموقف، وقلت لمدير الإدارة في هدوء: والله يا ريس أنا بأحاول أساعده بكلّ إخلاص وأخوّة، وتوجيهاتي له هدفها خروج تقاريره بصورة لائقة وصحيحة، وده بناءًا على تكليفك ليّا بمتابعته وتعليمه، وأعتقد حضرتك شايف النتيجة في مراجعاتك لتقاريره برضه، كوني إني أعلّم بقلم أحمر على التقرير أو أعيد



صياغة جُمل فدَه شيء اتعمل معانا كلنا واحنا لسّه داخلين في المهنة جديد.

ابتسمَ المدير وهو يقول: أيوه، بسّ أحيانًا بتبقى أعصابك مشدودة وأنتَ بتوجِّهه، أنا لاحظت ده مؤخرًا، خاصّة بعد موضوع المؤتمر اللي (خالد) طالعه وأنت لأ!

فهمتُ المقصود من كلمات المدير، وكانت كلماته تثير غضبي بشدة، إلا إنّي تمالكت أعصابي، وقلت له محاولًا التظاهر بالهدوء: قصد حضرتك المؤتمر اللي أنا قدِّمت فيه بحث أنا عامله وحاطِط أسماء الزملاء عليه كمجاملة، وفي الآخر الوزارة اشترطت الحصول على التويفل للسفر.. و(خالد) مسافر يقدِّم بحث لم يبذل فيه أيّ مجهود وأنا صاحب البحث مش مسافر؟

ضحكَ المدير وقال: أعتقد إنّك فهمت قصدي، وعرفت بأقول ليه أعصابَك مشدودة.. هوّ ملوش ذنب في اختيارات الوزارة، وأهو أيّ حدّ من الأطباء يسافر أحسن مالفرصة تضيع على الكل.

رمقتُ المدير بنظرة غاضبة، وقلت في تحفُّز: أعتقد أنَّ تفصيل القرارات بعد التقديم للمؤتمر كان شيء واضح خاصة مع وجود قرابة لخالد مع أحدِ المسئولين في وزارة العدل، فضلًا إنّ مساعد الوزير اللّي هو مش طبيب مسافر برضه وأخد مكان أحد الأطباء اللّي كان أولى بيه.. يا ريت بسّ نحط الموضوع ده في الحسبان.



ارتبكَ مديرُ الإدارة وقال في تردُّد: بصّ يا (مصطفى).. بلاش تعقّد الموضوع ، دي وزارة، وده مساعد وزير يعني مفهومة.. وزميلك شابّ، وفرصة نشجَّعه علشان يحبّ المهنة ويبذل مجهود أكبر فيها.

ابتسمتُ ابتسامة باهتة وأنا أضيف: وطبعًا مش لازم ننْسى زميلنا يبقى مين، ويقرَب لمين في الوزارة.. أنا فاهم كل ده.. بس فيما يتعلق بالقضايا ومراجعتها كلّ ده ملوش عندي أي قيمة.

صمتَ المدير لعدَّة لحظات قبل أن يقول: كويس قوي.. خلّينا نركز في الشغل، وحاول توجِّهه بهدوء أكبر من كده والسفريات جايّة كتير، وبالمناسبة يا ريت تطلَع مع (خالد) النهارده مأمورية استخراج جثة من المقابر في بلد اسمها (....)، دي أول مأمورية استخراج لـ (خالد)، وأحبّ إن يكون في حدّ يوجهه ويعلمه الطريقة الصح.

ابتسمتُ ابتسامة ذات مغزى، وقلت: تحت أمرك يا افندم.. بسّ كده المكتب هيفضى على حضرتك ومحدِّش يباشر القضايا اللي هتيجي.

ابتسمَ المدير وقال: لأجل الورد يا سيدي يتسقي العُلّيق.

جاوبتُه مبتسمًا: طيب ممكن أعرف إيه ظروف القضية؟



قال في اهتمام ملحوظ: القضية حسب مذكرة النيابة إنّ في بنت عُمرها حوالي 19 سنة دهسها قطار، عم البنت اللي هو كان المسئول عنها بعْد وفاة والديها في حادث.. بطريقة غريبة استصدَر لها شهادة وفاة وتمّ دفنها في مقابر العائلة، ولكن وصل بلاغ من مجهول للبوليس قال إنّ الموضوع فيه شبهة جنائية، والنيابة سألتنا عنْ جدوى استخراج الجثمان والتشريح وإحنا طبعًا قلنا لهم في جدوى، خاصّة إنّ الجو اليومين دول شتاء وبرد، فقرّرت النيابة استخراج الجثة، والنهارده ميعاد الاستخراج.

كانت تفاصيلُ القضية غامضة وتثير عدمَ الارتياح بداخلي، خاصّة بعدما تمَّ إسنادها لزميلي (خالد) حديث التعيين، ولكنّي لم أحاول مناقشةَ المدير في جدوى إسنادها لزميلي حتى لا يُؤخَذ الموضوع على محْمل شخصي، فما كان منّي إلا أن قلت للمدير في هدوء: تمام يا ريس.. توكلنا على الله.. أجهّز شنطتي وننزل على طول.

نظرَ لي المدير نظرةً ذات مغزى وقال: مش هأوصّيك.. بالرّاحة على (خالد)، وفي نفس الوقت عاوز اهتمام بالقضية ومش عاوز أي أخطاء.

رددتُ عليه قائلًا: حاضر يا ريس.. متقلقش.



ثمَّ غادرت مكتب المدير وتوجَّهت إلى مكتبي حيث قمتُ بتجهيز حقيبتي والبالطو الخاص بي، ثم توجَّهت إلى مكتب (خالد) حيث وجدتُّه منهمكًا في تجهيز نفسه، فألقيتُ عليه التحية وقلت له: جاهز يا دكتور (خالد) للمأمورية؟

نظرَ لي (خالد) وقال مبتسمًا: جاهز يا كبير.

قلتُ له باهتمام: راجعت معَ فني التشريح الأدوات اللي هيحتاجها والعبوات اللي هناخد فيها العينات وغيرها من التفاصيل؟

ضحكَ (خالد) ضحكة قصيرة وقال: عيب يا كبير إحنا تلامذتك.. كله تمام.

ابتسمتُ وقلت له: يلّا بينا نلحق ننزل علشان منتأخَّرش وإحنا راجعين.

وبالفعل تحرَّكنا من المكتب، وركبنا السيارة أنا و(خالد) وفني التشريح (عم سبع)، وطوال الطريق تبادلت مع (خالد) حديثًا وديًّا، وأعطيته بعضَ النصائح الخاصَّة بطريقة القيام باستخراج جثة من المقابر، وماذا ينبغي عليه فعله، وما النقاط التي يجب عليه التركيزُ في فعلها خلالَ المأمورية، وكانت توجيهاتي هادئة في إطارٍ أخوي بحت، وخالية من أيٍّ رسميات في محاولة مني لتلطيف الأجواء معه، وكنت أحاول أيضًا إعدادَه



لما سوف يواجهه في مأمورية الاستخراج، ولكن للأسف فيما بعد مجهوداتي ضاعتْ هباءً!

كانتِ البداية غيرَ مبشِّرة عندما وصلنا إلى موقع الاستخراج، حيث نزل (خالد) من سيارة الطب الشرعي وأسرع باتجاه وكيلِ النيابة وضابط الشرطة للتَّرحيب بهما وتبادل المزاح معهما، وقد تبين من الحوار أنَّهم على علاقة صداقة ببعضهم البعض، كما أنهم ربما مشتركين في نادٍ واحد أو ما شابه، وكانتْ تصرفات (خالد) لا توحي بأيِّ اهتمام بالمأمورية في حد ذاتها، إلا إنّي تغاضيتُ عن ذلك في البداية معتقدًا أنه سوف يدرك ما هو الأجدر باهتمامه.

وما إنْ وصلنا إلى القبر حيث يرقدُ جثمان المتوفاة حتى وقف (خالد) يكتب العلاماتِ المميزة للقبر وإحداثيات تواجده وحالته الفنيَّة للاستدلال فيما بعدُ على حالة العثور على الجثمان بداخله، ثمَّ قام بالتأكد من القبر المراد استخراج منه الجثمان بالاستعلام مِن العامل في المقبرة وعمِّ المتوفاة عن مكان دفن المتوفاة، وما إنِ انتهى من ذلك حتى أمر وكيل النيابة اللحاد بفتحِ القبر لاستخراج الجثة.

بالفعل قام اللحّادُ وبعض المتواجدين باستخراج الجثمان من داخل القبر، وقد كان الجثمان ملفوفًا بكفن أبيض يعلوه بعض التراب من جرّاء الدفن، كما



كان الكفن يلوثُه دماء من المؤكد أن مصدرَها جثمان المتوفاة.

عقبَ هذا قام الحاضرون بوضْع الجثمان على منضدة كبيرة تمَّ إعدادها خصيصًا من أجل هذه المأمورية، وما إن استقر الجثمان على المنضدة حتى طلبَ (خالد) من جميع المتواجدين- فيما عدا وكيل النيابة- مغادرةَ المكان، وطلب من قوة الشرطة المرافقة وضعَ ساترٍ حول موقعنا كي نبدأ في فحصِ الجثمان وإجراء الصفة التشريحية عليه.

وقامَ فني التشريح برفع طبقات الكفن من حول الجثمان فإذا بالجثمان لفتاةٍ في أواخر العقد الثاني من العمر، وقد كان الجثمان ينقسم إلى شطرين من منتصف الجسد حيث قام القطارُ بدهس المتوفّاة، وكان الجثمان في حالة عامة جيدة ولم تظهر عليه معالمُ التعفن الرِّمي بعدُ بفعل الحفظ الجيد داخلَ القبر، وبفعل الطقس البارد الذي أدَّى إلى تأخر حدوث عملية التعفن الرمي.

كانت حالةُ الجثمان جيدة جدًّا، وتسمح لنا باستنتاج كثيرٍ من المعلومات منها، وبالفعل ارتديتُ البالطو الخاص بي ثم نظرت لـ (خالد) منتظرًا منه فعلَ المثل، ولكني وجدتُّه منشغلًا بالحديث مع وكيل النيابة في حديث لا علاقة له بالمأمورية وقد أشعل كلٌّ منهما سيجارة، وتبادلا المزاحَ والنكات، فناديته بهدوءٍ وقلت



له: دكتور (خالد).. ممكن نبدأ بعد إذنك؟

نظرَ لي (خالد) وبدَا أنه لم يفهم الغرضَ من حديثي، ثم وجَّه حديثه لفني التشريح وهو يقول: اتوكِّل على الله يا عم (سبع).. افتحْ لنا الراس كده.

كان تصرفه استفزازيًّا لأقصى مدى، لا سيَّما وقد أعطيته كافةَ التعليمات الخاصة بطريقة إدارة المأمورية أثناء مجيئنا وكنت أتوقَّع منه أن ينفِّذ تلك التعليمات، ولكن يبدو أنه لم يستوعبِ الدرس، فقرَّرت أن أغير منهجي في التعامل معه حفاظًا على سيْر المأمورية، وخشية أن تفوتنا أيةُ مشاهدات بالجثمان قد تؤثر في سير القضية.

فقرَّرت في هذه اللحظة أخذَ سبق المبادرة من (خالد) وناديتُه بلهجة حازمة: دكتور (خالد).. بعد إذنك تشرفنا هنا علشان نوصِف المعالم الإصابية بالجثمان مع بعض.

لاحَظ (خالد) أن نبرةَ صوتي قد تبدَّلت واصطبغتْ بالجدية والحزم، مما جعله يقترب منّي ويقول في صوت منخفض: في إيه يا ريس؟ مش كده تحرجني قدام الناس!

نظرتُ إليه بصرامة، وقلت له موبِّخًا: إحنا في مأمورية رسمية مش في رحلة ترفيهية، ومكانك على راس الجثة مع فني التشريح مش مع وكيل النيابة، وبعدين انتَ جاي



ببدلة وكرافتة وحتّى مفيش بالطو ولا جوانتي لبسته.. أفهم إنت جاي تعمل إيه؟

بدَا الارتباك والإحراج على معالم (خالد) وتصبَّب عرقًا على الرغم مِن برودة الجو وقال في خفوت: يا باشا بلاش تقفش عليًا كده، والله ما قصدي أضايقك.. قولّي بسّ أعمل إيه يريّحك ويرضيك.

كانت كلماته تزيدُ من حنقي عليه وغضبي على تصرفاته، لم أكن أريدُه أن يرضيني أو يريحني.. كنت أريده أن يقوم بعمله على أكملِ وجه، وأن يتذكر أنَّ دمَ تلك المتوفاة في رقبتنا إلى يوم القيامة، كنت أريده أن يشعر جسامةَ المسئولية الملقاة على عاتقنا، ومن أجل هذا كان أمامي طريقان.. إما أن أعنِّفه أمام الحضور وألقِّنه درسًا قاسيًا، أو أتَّخذ موقفًا أكثر حكمة يضع الأمورَ في نِصابها ويحفظ لنا كأطباء شرعيّين هيبتنا، ويحفظ للمتوفاة حقها، وكنت قد اتَّخذت قرارًا بالتزام الحكمة والهدوء.

وفي حركة مفاجئة، قمتُ بخلع البالطو وقلت لـ (خالد) في لهجةٍ حازمة بصوت عالٍ: اتفضل يا دكتور (خالد) البالطو أهو علشان شكلك محتاجُه وانتَ بتفحص الجثة.. ربنا يعينك ويوفقك.

كانت خطوتي مُفاجئة للجميع بما فيهم (خالد) الذي حدقَ بي مندهشًا، وقال في صوت خافت: أنت بتعمل إيه



يا كبير؟ جثة إيه اللّي هأفحصها؟

قلتُ له بصوت حازمٍ وخافت لم يسمعه غيره: جثة المرحومة يا (خالد)، وهتلبس جوانتي وهتفحص الجثة بإيدك مع عم (سبع).. وأنا هأكتب وراك اللي أنتَ هتشوفه، يا كده يا إمّا إعتبر نفسَك معفي من المأمورية دي وزيَّك زيّ أمين الشرطة اللّي بيأمن المأمورية أو سواق الإسعاف!

كانت كلماتي قويةً وقاطعة، وتظهر أنّي لن أقبلَ التهاون في المأمورية، مما جعل (خالد) يجيب في إذعان وإحراج قائلًا: حاضر يا ريس.. تحت أمرك.

وبالفعل ارتدى (خالد) البالطو والقفازات، وشرعَ في فحص الجثة بيديه، وكان هذا ما أردتُّ أن يحدث.. أردت أن يتعلم (خالد) التركيزَ في العمل والاهتمام بالتفاصيل الدقيقة دون أن ينساق وراء إلهاء الحاضرين له.

كان (خالد) وعم (سبع) يقومان بالعمل بصورةٍ جيدة، وكان (خالد) يقوم بإعطائي ملاحظاته ومشاهداته التي استطاع تمييزها بالجثمان، بالكشف الظاهري تبينًا أنَّ الرسوب الرِّمي (موضع تجمع الدماء بالجثة عقبَ الوفاة) كان داكنًا، وكان منتشرًا في مناطق متفرِّقة من الجسم، وليس في خلفية الجثة كما هو معتاد.. مما يشير إلى تغيير وضع الجثمان عقب الوفاة، كما كان



هناك سحْجات وخدوش حيوية بكامل الوجْه والذراعين والرقبة، وأيضًا هناك سحجات غير حيوية بخلفية الجسم كالظهر وباطن الساقين والفخذين، كما كانت الجثةُ بها انْشطار بمنطقة الخصر، وكان في موضع الانشطار جروحُ هرسية متعددة على جانبي الانشطار.

انتهى الفحصُ الظاهري للجثمان، فنظرَ لي (خالد) نظرة تحمل تساؤلًا حول ما ينبغي عمله بعد هذا، فاقتربت منه وهمست له في أذنه قائلًا: أيّ حالة فيها شكّ زيّ دي.. اتفقنا إننا لازم نفحصها ونشوف إذا كانت عذراء أو ثيّب، وطبعًا لازم ناخد مسْحة مهبليّة وشرجية منها تحسبًا لحدوث اعتداء جنسي من عدمه.

وبالفعل قام (خالد) بفحص الجهاز التناسلي للمتوفّاة بينما كنت أقفُ بجواره، وكانت المفاجأة التي أربكت (خالد) وأدهشتني.. الفتاة لم تكن بِكرًا وقد تمَّ فضُّ غشاء بكارتها منذُ فترة زمنية طويلة على الرَّغم من أنَّ عمها أقرَّ في التحقيقات أنها مازالت آنسة ولم تتزوج!

قمنا عقبَ ذلك بأخذ مسْحة مهبلية ومسْحة شرجية من جثمان الفتاة؛ حيث إن كونَها ليست بِكرًا ربما يصاحبه مواقعتها جنسيًّا في وقتٍ قريب من حدوث الواقعة، وفي حالة اكتشاف آثارٍ لسائل منوي وقدرتنا على تحديد صاحبه، كلُّ هذا ربما يقود التَّحقيقات إلى مُشتبه به أو حتى إلى الجاني في حالة ما إذا كانت الواقعة جنائية.



كنّا قد انتهينا من الكشف الظاهري وانتقلنا إلى إجراء الصفةِ التشريحية على الجثمان، بدأنا بالرأس وتبينا وجود انسكابات دمويةٍ شديدة أسفل الكدمات والسحْجات المشاهَدة بمنطقة الوجه والرأس وهو ما يشير إلى أنها حدثت قبل وفاة المذكورة، إلا إنَّ بعضَ السحْجات كانت متركِّزة حول الأنف والفم بصورةٍ غريبة بعكس ما قد يحدث مع مثل حوادث دهسِ القطارات.. إلا إنَّنا لم نحاول البحث عن تفسير ذلك في حينه.

كانت عظامُ الجمجمة سليمةً من الكسور وإنْ كنا قد تبينّا وجودَ كسر مُنخسف قديم وملتئم، ويوجد أسفله أثرٌ لإصابة قديمة في قشْرة المخ، مما جعلني أكتبُ في ملاحظاتي أن نسأل عمَّ المتوفاة عن تاريخها المرضي، وعمّا إذا كانت قد تعرضت لأية إصاباتٍ في حياتها، وعقبَ هذا تبينّا سلامة عظام العنق.

كذلك فحصنا منطقةَ الصدر، وتبينّا- أيضًا- وجودَ انسكابات دموية بجدار الصدر، وكذلك بالأنسجة الرخوة به، وتبينا وجودَ كسور ملتئمة وقديمة بمعظم ضُلوع القفص الصدري، مما يشير بلا شكٍّ إلى تعرُّض المتوفاة إلى حادثٍ قديم ربما أدى إلى هذه الكسور، وتبينّا سلامةَ القلب من المعالم المرضية والإصابية الظاهرة، ولكنّنا تبينّا وجودَ نقاط نزفية على الرئتين واحتقان واضح بهما، وكانت هذه أيضًا علاماتٍ تثير القلق حولَ السبب



الحقيقي لوفاة المذكورة!

وجاءت أهمُّ لحظة في عملية التَّشريح من وجهة نظري وهي لحظةُ فحص منطقة البطن والخصر موضع انشطار الجثة، كانت المنطقة مشوَّهة بشدة بفعل دهْس القطار، وكانت معظم أحشاء البطن متهتِّكة أو مفقودة، كذلك عظامُ الفقرات القطنية كانت مفتَّتة بشدة، وكان أهمُّ ما يقلقني معرفةَ ما إذا كانت الجروحُ الهرسية المشاهدة بمنطقة الخصر والبطن هي جروح حيوية وحدثتْ أثناء حياة المتوفاة أم أنَّها غير حيوية، أمرٌ مثل هذا يعني لي الكثير.. فلو كانتِ الجروح الهرسية حيوية فهذا يعني أنه بصورةٍ كبيرة سببُ الوفاة هو حادث الدَّهس بواسطة القطار، ويمكننا استبعادُ أية أسباب أخرى، أما لو كانت غير حيوية فهذا يعني أنَّ الفتاة ماتت أو تمَّ قتلها قبلَ حادثة الدهس وتمَّ إلقاء الجثة على قضبان السكك الحديدية من أجل تشتيت الانتباه عن السببِ الحقيقي للوفاة، وإخفاء معالم جريمة محتملة، لذا فقد أشرتُ على (خالد) بأخْذ عينة من الأنسجة في منطقة الجرح الهرسي من أجل فحصِها بالمعامل الطبية للتأكد عما إذا كانت جروحًا حيوية أم جروحًا حدثت بعد الوفاة.

قمنا بفحْص الشطر الآخر من جثمان المتوفاة أيضًا، وأخذنا عيناتٍ من موضع الجرح الهرسي لفحصها، ولحسن الحظ وجدنا الرحمَ سليمًا، ولكنْ بتدقيق النظر



فيه كان حجمُه متضخمًا قليلًا، فطلبت من (خالد) أن يفتحَه بحرص فكانت المفاجأة.. تبينا وجودَ جنين لا يزيد عمرُه عن ثلاثة أشهرٍ رحمية، وكان هذا الاكتشاف سيغيِّر مجريات القضية ويقلبها رأسًا على عقب.. حقًّا كانت مفاجأة بكلِّ المقاييس حتى إنَّ خالد هتف في انفعال: يا نهار اسود يا باشا، دي البنت طلعت حامل!

نظرتُ إليه بغضب وقلت في انفعال: اسكتْ يا (خالد).. ماتنطقش ولا كلمة لغاية لما نروح المكتب ونشوف هنعمل إيه.. لو كلمة اتعرفتْ ممكن تهيِّج الدنيا علينا، خدِ الرحم كله معانا بمحتوياته، وكمان جزء من ضلع الجثة علشان اختبارات الحامض النَّووي، وخدْ عينات من الأحشاء علشان التحليل الكيماوي للمخدرات والسموم.

أوشكْنا على الانتهاء من فحصِ الجثمان، وقمنا بإعادة غلق الجثمان وتكفينه بصورةٍ لائقة، ثم قمنا بإعطاء إشارة لوكيل النيابة تفيد بانتهاء المأمورية حتى يصدر قراره بإعادة الجثمان إلى القبر.

عقبَ ذلك توجَّهت أنا وزميلي (خالد) وفني التشريح نحوَ سيارة المصلحة وأعطيت (خالد) نموذجًا ورقيًّا يفيد بالانتهاء من إجراءات المأمورية حتى يقوم بإكماله وإعطائه لوكيل النيابة.. فقام (خالد) بكتابة البيانات وفوجئت به يقول لي: خلاص يا كبير توكلوا انتوا على



الله وأنا هأركب مع وكيل النيابة العربية وأبقى نتقابل بكره!

أثارتْ كلماته غضبًا هائلًا في صدري، ولكنّي حاولت التظاهرَ بالهدوء وقلت له: لا يا دكتور.. حضرتك إحنا جايين مع بعض كفريق واحد، وعندنا مهمَّة لسَّه مخلصتش.. لسَّه ورانا نقاش حول القضية والمشاهدات أثناء التشريح والأحراز والعينات اللي لازم تتفرَز علشان نعرف إيه الأبحاث المطلوبة اللي هنعملها.

ردَّ (خالد) بضيق: حاضر يا دكتور (مصطفى).. تحت أمرك.

في هذه اللحظة كنتُ قد اتخذتُ قرارًا بداخلي بالفعل وهو أنَّ هذه القضية سأشرف عليها شخصيًّا كأنها قضية تخصني ولن أتركَها بيدِ (خالد) بمفرده تحت أيِّ ظرف، فمن الواضح أنَّ (خالد) له أولويات أخرى بخلاف العمل والقضية.

ركبنا سيارة الإسعاف الخاصَّة بنا، وأثناءَ رحلة العودة قمتُ بمناقشة الحالة مع (خالد)، وقمتُ بتوجيهه للإجراءات التي سوف يقوم بها، وأهمها إرسال عيِّنة من الجنين المعثور عليه بالرحم حتى يتمّ استخلاص الحمض النووي منه تمهيدًا لمقارنته بأي مشتبه به لاحقًا، وكذلك سرعة إرسال العيِّنات إلى المعامل الكيماوية لمعرفة عما إذا كانت المتوفاة كانت تحتَ تأثير أي مخدر أو



منوم عندَ حدوث الواقعة، وقد نبَّهت على (خالد) إنجازَ كلِّ شيء في سرية تامة حيث إننا لا نعرف الملابسات الحقيقية للواقعة.

مرَّت عدةُ أيام عقب ذلك، وفوجئتُ بمدير الإدارة يستدعيني على وجْه السرعة، فذهبت إليه وما إن دخلت المكتب حتى وجدتُّه غاضبًا وقال لي: مش قلت لك القضية تبقى تحتَ إشرافك ومتخليش (خالد) يتصرف من دماغه؟

انتابتني الدهشةُ ورددتُّ عليه قائلًا: ما هو ده اللي حصل فعلًا يا فندم، وقعدتّ معاه وقلت له هيعمل إيه وقلت له كلّ شيء يبقى بمنتهى السرية.

ردَّ المدير غاضبًا: أهو سي (خالد) معملش أيّ حاجة من اللي أنت قلتها وتسبب في كارثة!

تساءلتُ بغضب واضح، وقلت له: إيه اللي حصل؟

قال المدير غاضبًا: (خالد) كلم رئيس المباحث اللّي شغّال في القضية وقال له إنّ الضحية كانت حامل، وبصورة أو بأخرى الخبر وصَل لعمِّ المتوفاة وأسرِتها، وطلعوا على بيت ابن خالتها وضربوه علقة لغاية لما مات بين إيديهم لإنّهم شكوا إنه كان على علاقة بالمتوفاة، وإنّ هو أبو الجنين، والنيابة العامة استصدرتْ قرارًا بتشريح جثمان الشاب، والمحامي العام قرر يحول



(خالد) لتحقيق جنائي بتهمة إفشاء أسرار القضية، والمصلحة قرَّرت تحويله لمجلس تأديب في محاولة لتخفيف غضب النيابة العامة!

كانتِ الأخبار صادمةً بالنسبة لي، مما دفعني للقول بحزن: لا حولَ ولا قوة إلا بالله، والله أنا نصحته فعلًا ميتكلمش في القضية، بسّ هو للأسف كلامه كتير، وعلاقاته بالشرطة شخصية قوي، طيب هو فين دلوقتِ؟

قال لي المدير بانفعال: موقوف عن العمل لغاية لما المصايب دي تخلص.. وبناءً عليه أنت اللي ماسك قضية البنت المتوفاة وهتمسِك قضية الشابّ اللي اتقتل، ومش عاوز أيّ أخطاء لإنّ القضية دخلت في طريق مش كويس، عارف هتعمل إيه يا (مصطفى)؟

قلتُ له محاولًا طمأنته: هطلع فورًا أشرَّح جثة الشاب وآخُد منها عينة علشان الحامض النووي للتأكد من إنه والد الجنين من عدمه.

ابتسمَ المدير وقال: أنتَ كده فهمتني، أبوس إيدك القضية تخلص بسرعة، وتتلمّ علشان (خالد) كل وسايطه مش نافعة تخرجه من الأزمة دي، والحاجة الوحيدة اللي هتقلّل العقوبة عليه إن القضية تخلص وتتقفل.

قلت له: حاضر، إنْ شاء الله. القضية دي هتخلص على خير، وربنا هيزيح الغمّة دي من على الجميع.



انصرفتُ من عندِ المدير وقمتُ بتجهيزِ نفسي واصطحبتُ فنّي التشريح وتوجّهنا إلى المشرحة التي يوجد فيها جثمان الشابِّ القتيل، وقمنا بتوقيع الكشف الظاهري عليه، وإجراء الصفة التشريحية على جثمانه، وتبيَّنت أنَّ سببَ وفاته إصابة شديدة بالرأس، وقمتُ بأخذ جزءٍ من أحدِ ضلوع المتوفَّى لاستخلاص الحامض النووي منه ومقارنته بالحامض النووي الخاص بالجنين الخاص بالمتوفاة.

بالطبع عقبَ ذلك قمتُ بإرسال كافَّة العينات إلى المعمل الطبي، وقمتُ باستعجال التقارير نظرًا لحساسية القضية، وما هو إلا أسبوعٌ حتى جاءتني كافَّة النتائج المعملية وحملت مفاجآت مذهلة!

كانت تقاريرُ المعمل الكيماوي قد أشارتْ إلى وجود نسبة كبيرة لعقار الـ (كاربامازيبين) المستخدم في علاج الصرع، وكذلك نسبة كبيرة لمشتقّات عقار الـ (البنزوديازيبين) وهو عقارٌ منوِّم، وأيضًا يُستخدم أحيانًا في حالات الصرع، وهذا ما يتفق مع ما رأيتُه من وجود إصابةٍ قديمة بالمخ ربما تكون قد تسبَّبت في نوبات صرعية للفتاة.

كما أوضحت تقاريرُ المعمل الطبي الخاصّة بتحليل الحامض النووي الخاص بكل من المتوفاة وجنينها والشاب ابن خالتها؛ أنَّ الجنين ليس ابنَ الشابِّ القتيل،



ولكنه يحمل صفاتٍ وراثية لشخص غيرِ معلوم حتى هذه اللحظة.

كما أفاد تقريرُ المعمل الطبي أنَّ العينات المأخوذة من جثمان الفتاة- وخاصَّة من منطقة دهس القطار- لا يوجد بها أية دلالات حيوية، أي إنَّ الفتاة تم إلقاءُ جثتها على شريط السكك الحديدية عقبَ وفاتها لإخفاء آثار جريمة ما!

كانت كلُّ النتائج قد جعلتِ القضية تأخذ مسارًا مختلفًا تمامًا في هذه اللحظة، فهناك مَن تورَّط في علاقة غير شرعية مع الفتاة، وبالتأكيد هو مَن له مصلحةٌ في مقتلها، ومحاولة تصوير وفاتها على أنه انتحار!

لم يكنْ بإمكاني مشاركةُ المعلومات بصورة غيرِ رسمية مع أيِّ شخص نظرًا لإمكانية تسريب المعلومات قبل وصول التقريرين الطبيَّين الشرعيّين إلى النيابة، فقمتُ بإعداد التقريريْن الخاصَّين بالمتوفاة والشابِّ القتيل، وإرسالهما في مظروف مغلق إلى النيابة العامة لتباشر َالتحقيق بمعرفتها.

في اليوم التالي مباشرة، جاءني اتصالٌ عاجل من وكيل النيابة المسئول عن القضية، وطلب منّي التوجهَ إلى مقرِّ النيابة لمناقشة التقرير في سرية؛ حيث إنَّ القضية قد ازدادتْ غموضًا، وتشابكت خيوطها. وبالفعل توجَّهت إلى النيابة العامة وما إن دخلتُ إلى مكتب وكيل النيابة



حتى استقبلني بترحابٍ وقال: منور يا (مصطفى) بيه.

ابتسمتُ وقلت له: منوَّرة بيك يا سيادة المستشار.. خير تحت أمرك!

أجاب بجديَّة وقال: القضية دلوقتِ قلبت غَم بعدما كنّا فاكرينها قضية انتحار بسيطة، أنا عاوز أعرف القصَّة منك ببساطة لإن إحنا قابضين على عمِّ المتوفاة دلوقت لإنه هوّ اللي قرَّر يدفنها بدون تصريح دفن، وهو المشتبه فيه الرئيسي في القضية، وطبعًا قابضين على كذا واحد في تهمة قتل الشاب ابن خالتها.

رددتُ عليه وقلت: ببساطة في واحد كان على علاقة غير شرعيَّة مع المتوفاة وهو والد الجنين، والشخص ده مش ابن خالتها الشابّ المقتول، والفتاة ماتت بسبب أسفكسيا كتم النفَس مش بسبب دهس القطار، يعني اتقتلت واترمَت على سكة القطر!

عقدَ وكيل النيابة حاجبيه وقال: يعني أنت شايف إيه؟

قلت له: مين كان مُقيم مع المتوفاة؟

قال وكيل النيابة: العمّ وزوجته وبنته وابنه.

جذبتِ انتباهي تلكَ التفاصيل وقلت له: ابن العمّ فين حاليًا؟

ردَّ وكيل النيابة: محبوس على ذمّة قضية قتل الشاب



لإنه هوّ ومجموعة راحوا لبيت المجني عليه وضربوه لغاية لما مات لإنهم افتكروه هوّ اللي كان على علاقة بالمتوفاة.

قلتُ لوكيل النيابة: معلش، يا ريت تستصدر قرار حالًا بإرسال ابن العمّ للمَعامل الطبية ياخدوا منه عينة دم ويستخلصوا الحامض النَّووي ويقارنوه بالحامض النووي للجنين، لو طلع الجنين ابنه يبقى هو الجاني غالبًا.

ارتسمتِ الدهشة على وجْه وكيل النيابة وقال: معقولة يا دكتور! ابن عمها هو اللي يعمل كده؟

قلتُ له بحذر: الطبّ الشرعي علّمني إنّ مفيش حاجة مُستبعدة وإني لازم أربط الأحداث ببعضها، المرحومة كان في دمها أدوية منوِّمة بتركيزات عالية ممكن تأثَّر على وعْيها وإدراكها، وتعرَّضت للضرب وكتم النفَس حتى الوفاة، وبعدين عمّها يدفنها بدون تصريح دفن، ونكتشف إنها كانت حامل، وكلّ ده سببُه بلاغ من مجهول!؟ لو في مُشتبه فيه يبقى نبتدي من المخالطين للمتوفّاة الأول، ولولا إني مُحرج منّك كنت قلت لك إني مُشتبه برضه في عمها في موضوع إنه يكون والد الجنين.

قال وكيل النيابة بحزنٍ واضح: لا ده كده تبقى فعلًا جريمة بَشعة.. عمومًا أنا هبعت ابن عمّها للطب الشرعي يتاخد منه عينات الحمض النووي ونتكلم



بعدها.

ختمْنا اللقاء على اتِّفاق بالتواصل عنْ طريق الهاتف في كافَّة مستجدات القضية، وكانت القضية بالنسبة لي على وشك أن يتمّ حلُّها، وحدْسي كطبيب شرعي نادرًا ما يخطئ!

بعدَ أيام ظهرت نتيجة تحليل ابن العمّ، واتَّضح أنه والدُ الجنين، وأبلغت وكيل النيابة رسميًّا بالنتيجة، وما هي إلا ساعات وأرسلَ لي وكيل النيابة صورةً من ملفٍّ التحقيقات مدوَّن به اعترافات كلٍّ من العم وابنه، وكانت قاسية ومُخيفة إلى أقصى مدى!

قال العمُّ في اعترافاته: بنت أخويا كانت يتيمة الأب والأم بعْد حادثة العربيَّة اللي كانت البنت فيها معاهم، والبنت كان فيها إصابات كثيرة واتْعالجت فترة، بس كانت بتاخُد دوا صَرع، أقسم بالله ربّيتها وراعيتها زيّ عيالي تمام لإنها بنت المرحوم أخويا من لحمي ودمّي، يوم ما لقوا جثتها على شريط القطر كنت انا ومراتي وبنتي مسافرين البلد، وبنت أخويا لوحدها في البيت، وابني كان برّه مع أصحابه، رجعت على مَلَا وشّي على خبر انتحارها، ولما شفتها صعبت عليّا، وابني قال لي إنّها يمكن انتحرت علشان زعلانة على حالها علشان مريضة صَرع، ومفيش عرسان بتتقدِّم لها، صدَّقته وقلت إكرام الميت دفنه، لما البوليس جاله بلاغ إنّ في شبهة



في وفاتها.. زعلتْ علشان الفضايح وبهدلة جثة البنت، ومكنتش فاكر إن في مصيبة زيّ حكاية الحمل دي.. أنا أيوا غلطت لمّا دفنتها من غير تصريح بس مكنتش اعرف أيّ حاجة!

أمّا اعترافات ابن العمّ فقد كانت صادمة؛ بنت عمي كانت زيّ أختي طول عمرها، لغاية لما الشيطان لعب في دماغي لما لقيتها بتنام كتير بسبب الدوا اللّي بتاخده ومش بتخرُج من البيت كتير، في يوم كانت في البيت لوحدها واحلوّت في عيني قمت حاطِط لها جرعة زيادة من المنوّم بتاعها في عصير، ولما نامت عملت معاها الحرام وهي محسّتش بيّا، الموضوع عجبني وبقيت أنتهز أيّ فرصة أهلي مش موجودين فيها وأكرَّر الحكاية، لغاية لما في يوم صحيتْ وحسِّت بيّا وأنا معاها وبهدلتني وهددتني تفضحني قمت وعدتّها بالجواز والموضوع نامَ شوية، في يوم الحادثة رجعت البيت وكانت لوحدها وسمعتَها بتكلم ابن خالتها في الموبايل وبتحكي له، استنّيت لما خلَّصِت المكالمة وقمت معاتبها وقلت لها مش وعدتِّك نتجوز؟ حصلتْ خناقة بينا ومحسّيتش بنفسي إلا وأنا بأكتم نفَسها وماتت بين إيديا، خُفت المصيبة تتكشف قُمت مكلِّم اتنين أصحابي وجُم شالوها معايا وحطيناها على شريط القطر، وطلعنا تاني يوم ندوّر مع الناس عليها وكده، ولمّا عرفنا من الشرطة إنها حامل قلت للناس إن ابن خالتها هوّ أبو العيل، وطلعنا على



بيته وضربْناه لحدّ أمّا مات علشان ميفضحنيش، خاصّة إنه أكيد اللي بلّغ البوليس وقال إن في شبهة جنائية في موت بنت عمي!

كانتِ الاعترافات مُتطابقة مع تقرير الطب الشرعي الذي قمتُ بإعداده، وللأسف كانت القضية- وعلى الرغم من انتهائها- تثير بداخلي الكثيرَ من الحزن والامتعاض!

انتهتِ القضية بسلام، ولكنْ للأسف لم ينته الموضوعُ بأكمله بسلام، فـ (خالد) زميلي تمتْ إدانته بمجلس التأديب بسبب تسْريبه لمعلومة أدَّت إلى مقتل الشاب، وكان قرارُ مجلس التأديب قاسيًا بعزله من وظيفته، ولكن هذه العقوبة أدتْ إلى حفْظ تحقيق النيابة العامة معه مراعاةً لحداثةِ عهده بالعمل بالطبِّ الشرعي، وبعد تدخل وساطات كثيرة لغلق الموضوع.

ولأوَّل مرة منذُ التحاقي بالطب الشرعي تنتهي قضيةٌ بكلِّ هذا القدر من الأضرار للمجني عليهم، وحتى لأحد الأطباء الشرعيّين!



الجريمةُ الأبدية

وأكتر حاجة لاحظتها في الطبّ الشرعي.. إنّ لما القاتل والقتيل يبقوا اخوات؛ بيكون السبب في كلّ الحالات هو الميراث.. ومعظم الحالات بتبقى الإصابات فيها قاتلة بصورة فوريّة ودقيقة جدًّا، لدرجة إني بأتخيّل الشيطان واقف على بوز السكينة أو الرصاصة وبيعمل لها توْجيه.. ومفيش جَرح بيبقى طايش أو سطحي، وكلها في الأعضاء الحيوية.

وعُمري ما لقيت جروح دفاعية تدلّ إنّ القتيل حاول يدافع عن نفسه، كإنه قبل موته، ولحدّ آخر لحظة بيبقى مش مصدَّق إنّ أخوه ممكن يقتله أو يأذيه.



للأسف، الحيوانات أفضل بكثير من بعض البشر.



القضيةُ الثّالثة

(جريمة في زمن الكورونا)





كان صباحًا ملبَّدًا بالغيوم في تلك المدينة التي أسكنُ بها في دلتا مصر، وكانت أحاديثُ الناس مركَّزة في هذه الأيام حول اجتياح وباء كورونا للعالم، ومدى تأثير ذلك على مصر، وانقسم الناسُ ما بين مؤمن بنظرية المؤامرة وأنَّ الكورونا ما هي إلا شائعةٌ مُغرضة لضرب السياحة والاقتصاد المصري، وما بين مصدِّق أنَّ هذا الوباء سوف يقتحم مصر عاجلًا أم آجلًا.

في الحقيقة، وفي تلك اللحظة التي كنت أجلسُ فيها على مكتبي بإدارة الطب الشرعي.. لم أكن أكترث كثيرًا لكلِّ ما يقال عن وباء الكورونا لأنَّني باختصار كنت قد عاهدتُّ نفسي على أن أحيطَ نفسي بفقّاعة من السلام النفسي، وألّا أزعج نفسي بأي شيء إلا حينما يتحوَّل إلى حقيقة لا مفرَّ من مواجهتها، خاصّة وأنني في مجال عملي في الطبِّ الشرعي أرى كثيرًا من المآسي التي لا يمكنني تجنُّبها، وأصبحتُ في لحظات كثيرة لا أخشى فكرةَ الموت في حدِّ ذاتها ولكنْ يُساورني القلق في طريقة الوفاة أو كما يقولون (إختار لك موتة)!

وما هي إلا دقائق حتى اقتحمَ عمّ (سبع) مكتبي بطريقتِه المعهودة ليقطع حبلَ أفكاري قائلًا بصوته الأجش: صباح الخير يا سعادة الباشا.. فطرت واللّا تفطر معايا؟

ابتسمت وقلتُ له ممازحًا: صباح الفل يا حاج (سبع)..



أنتَ هتفطر إيه بالصلاة عالنبي كده؟

قال بنبرةٍ ساخرة: أكيد يعني مش كباب وكفتة.. فول وطعمية من عربية الفول اللي على أول الشارع بتاعة الواد (فتحي قذارة).

ضحكت بصوت عالٍ على جُملته وقلت: يعني هيّ الدنيا ناقصة لَبَش؟! هنلاقيها من الكورونا واللّا من (فتحي قذارة)؟

ضحكَ عمّ (سبع) وقال: يا باشا إحنا بتوع الطب الشرعي، يعني قلبِنا ميّت زيّ الميتين اللي بنشوفهم.. الكورونا دي للعيال التوتو.. شكلك كده مش هتنفّعنا النهارده.. أخلع أنا علشان ألحق أفطر قبل ما الجثث تشرّف.

غادر عمّ (سبع) المكتب مسرعًا لشراء طعام الإفطار، بينما قمتُ أنا بإنهاء بعض التقارير لإرسالها للنيابات والمحاكم المختصة. مرَّت نصف ساعة قبل أن يدخل أحدُ موظفي الإدارة إلى مكتبي ويقول: صباح الخير يا (ريس).. دي إشارة تشريح لسّه جايّة حالًا من النيابة، والجثة في مشرحة المستشفى الأميري.

ألقيتُ نظرة على إشارة التشريح، وكانت مُقتضبة للغاية، ولم يُذكَر فيها إلا رقمُ القضية واسمُ المتوفى ومكانُ وجود الجثمان وقرارُ التشريح.



كنتُ معتادًا على مثل تلك إشارات التشريح المقتضبة، وكنت غالبًا أعتمد على أخذ المعلومات عن الواقعة والتاريخ المرضي للمتوفَّى من أفراد أسرة المتوفى المتواجدين خارج المشرحة، ولكنْ هذه المرَّة أدركت لاحقًا أنَّ هذا كان خطأً لا يُغتفَر، ولكن بعدَ فوات الأوان!

ما إنْ أنهى عم (سبع) إفطاره حتى قمتُ بتجهيز حقيبتي وأدواتي الخاصة بمأموريات التشريح، وتحركت رفقةَ عم (سبع) وسائق سيارة الإسعاف، وتوجَّهنا إلى المستشفى حيث يوجد جثمانُ المتوفى، وما إن وصلنا إلى المشرحة حتى لفتَ انتباهي عدم وجودِ أيٍّ شخص من أسْرة المتوفى خارجَ المشرحة كما هو معتاد، فقلت لعمّ (سبع) ممازحا: هو المرحوم كان مقطوع من شجرة واللّا إيه؟!

ردَّ عمّ (سبع) مبتسمًا: باين كده يا ريس.. أحسن؛ مش عاوزين زحمة.. خلينا نخلص في السريع.

ترجَّلنا من السيارة ودخلنا إلى المشرحة حيث استقبلنا العاملُ المسئول عن المشرحة، وقام بمساعدة عم (سبع) في إخراج الجثمان من ثلاجة المشرحة ووضْعها على طاولة التشريح، ثمَّ غادر المشرحة ليتركنا أنا وعم (سبع) بمفردنا.

وبتلقائيةٍ شديدة قام عمّ (سبع) برفع الغطاء عن جثمان المتوفى فإذا هو لرجل مُسن، في حوالي العقد الثامن



من العمر، ويبدو الهزالُ على جسمه، وبإجراء الكشف الطبي الشرعي الظاهري على الجثمان لم أرَ أية إصابات ظاهرة في أي من أنحاء جسده مما أعطى لي إيحاء بأنَّ الوفاة مَرضية، وإن كان هناك زُرقة بالشفتين والأظافر واحتقان بالعينين.. مما جعلني أقول لعم (سبع): هوّ إيه الحكاية؟ إيه سبب التشريح في الحالة دي؟ لا فيه إصابات ولا هو مثلًا ميّت في السجن وعاوزين يتأكدوا إن مفيش شبهة جنائية في وفاته!

قال عمّ (سبع) باستغراب: والله يا ريّس حاجة غريبة.. خلينا نخلَص من الحالة دي ونخلع قبل ما أهله ييجوا ويقرفونا.

في الواقع لم أشعرْ بالارتياح لوضع الجثمان، وقرَّرت فحصه مرةً أخرى بتمعن، وفي هذه المرة جذبَ انتباهي أمران.. الأول هو وجود آثارٍ لحبر أزرق على إبهام اليد اليمنى للمتوفى مما يدلُّ على أن أحدهم أخذَ بصمته على الرغم من أنه شخص معلوم الهوية وليسَ مجهولًا.. أمّا الأمرُ الثاني فقد تبينت وجودَ آثار لوخْز وريدي في ذراعه الأيمن مما يدلُّ على أنه كان يتلقى علاجًا ما قبل وفاته، وكلا الأمريْن يثيران الكثيرَ من الأسئلة حول ملابسات وفاته.

كان حلُّ اللغز الوحيد في هذه الحالة هو إجراءَ الصفة التشريحية على الجثمان، واكتشاف ما بداخل هذا



الجسد الهزيل من مفاجآت، وكان عمّ (سبع) يعمل بكل همةٍ ونشاط محاولًا إنهاء الحالة بسرعة قبلَ قدوم أسرة المتوفى، وبالفعل قام عم (سبع) بكلٍّ احترافية بفتح قبوة جمجمة المتوفى ليتبين وجودَ احتقان وتورُّم شديديْن بالمخ، وزيادة غير طبيعية بوزن المخ بفعل ذلك الاحتقان، ولم نتبين وجودَ أية إصابات أو مظاهر مرضية واضحة بالمخ.

كانتِ الخطوة التالية هي استكشافَ منطقتي العنق والتجويف الصدري لمعرفة هل هناك ثمة خطبٌ قد يؤدي إلى وفاة المذكور، وتبينّا خلوَّ المنطقتين من أية إصاباتٍ ظاهرة قد تؤدي إلى الوفاة، وفي هذه اللحظة قمتُ بارتداء القفازات الطبية لبدْء مرحلة الفحص الدقيق للقلب والرئتين وهي عملية أُفضّل أن أقوم بها بنفسي.

كان التجويفُ الصدري للمتوفى أشبهَ بساحة معركةٍ شديدة الدمار، فقد كانت هناك التصاقاتٌ شديدة بالرئتين والغشاء البلّوري المغطي لهما، وكان استخراج الرئتين والقلب بحالةٍ سليمة من داخل التجويف الصدري أمرًا شديد الصعوبة، وبعد عناءٍ قمت باستخراجهما، وبمجرد مشاهدتي لهما أدركت أنني ربما مُقبل على كارثة محقَّقة!

كان هناك احتقانٌ واضح وتليف شديد في أجزاء واسعةٍ من الرئتين مع وجود خُرَّاج في الفص السفلي من الرئة



اليسرى مما كان ينبئ بأنَّ هذه الحالة ربما تحمل خطرَ العدوى لي ولعمّ (سبع)، فما كان مني إلا أنْ قلت لعم (سبع): الحالة دي مش حلوة خالص.. ربنا يستر.. خلّي بالك من صوابعك وانتَ شغّال أحْسن المرحوم واضح إنه كان مريض!

ردَّ عم (سبع) بضيق: ربنا يستر.. ده إيه اللي في صدره ده؟ سُلّ ده واللّا إيه؟

قلتُ له متشككًا: معرفش.. واضح إنها التهابات مُزمنة ومعاها خُرّاج صديدي.. هناخد منها عينات باثولوجي ونعرف بعدين.. بسّ الشكل العام كده بيقول إنّ الراجل مات من فشل في الجهاز التنفسي.

ثمَّ قمت بعدَ هذا بفحص القلب، وكان متضخمًا بشكل واضح، مع وجود ضيق في الشرايين التاجية وهو ما كان متوقعًا في مثل هذا السِّن، وهذه المشاهدات رجَّحت معها أنَّ الوفاة مَرضية نظرًا لوجود مشاهدات مرضية جسيمة بالرئتين والقلب.

في هذه اللحظة انطلق صوتُ رنين هاتفي المحمول، ولكنني كعادتي أثناء التشريح لم أقم بالرَّد على المتصل، ولكن تكررت الاتصالاتُ بصورة مستفزَّة مما دفعني أن أنزع قفازاتي لأرى مَن المتصل فوجدته (وائل حلمي) وكيل النيابة الذي أرسل لي إشارةَ التشريح صباحًا.. فرددتُ عليه قائلًا بنبرة يشوبها الضيق: صباح الخير يا



وائل بك.. خير في إيه تحت أمرك؟

انطلق صوتُه صارخًا: أنت فين يا دكتور؟!

رددتُ باستغراب: أنا في المشرحة اللي فيها الجثة بتاعة إشارة التشريح.

صرخَ قائلًا: اطلع انتَ واللّي معاك بسرعة من المشرحة واوْعوا تلمسوها.. الراجل ميت بكورونا!

كان لكلماته وقعُ الصاعقة عليّ وأنا أحاول استيضاحَ الأمر منه قائلًا: أنت بتقول إيه يافندم؟!

ردَّ بطريقة هيستيرية: بقولّك الراجل مات بالكورونا.. هوّ وابنه لسّه راجعين من الصين من أسبوعين، وابنه بيقول إنه كان تَعبان وبيكح وسخن بعدما رجع من الصين.. ومرضوش يقولوا ولا يروحوا المستشفى علشان ميتحطّش في الحجر الصحي ويتبهدل.. أنا لسّه عارف منه الثانية دي في التحقيق.. اطلع من عندك بسرعة يا دكتور!

قلتُ له وأنا أحاول أن أبْدو متماسكًا: فات أوانه خلاص يا باشا.. إحنا فتحنا الجثة واتعكّينا فيها.. لازم نخلص تشريح ويحلّها حلّال بعد كده!

قال لي وهو يبدو منهارًا: يا باشا أنا اختلطتْ بعيلته كلها بقى لي ساعتين وشكلي اتْعديت منهم بالكورونا



وأنا عايز مصلحتك أقسم بالله.

ابتعدتُ عن عم (سبع) قدرَ المستطاع وقلت لوكيل النيابة بصوت منخفض: اقفلْ أنت دلوقت، ومحدّش من أسرته يطلع من عندك.. نُص ساعة وهكلمك أقولك تعمل إيه.. وبلاش تذيع خبر الكورونا دلوقت.

ردَّ مستسلمًا: حاضر يا دكتور.. اللي تشوفه.

أنهيتُ الاتصال وكان تفكيري مشوَّشًا لأقصى درجة، فقد كنت وجهًا لوجه ربما مع أكثر الأمراض غموضًا وشراسة على كوكب الأرض في هذه اللحظة، ولم أتخذ أنا ولا عمّ (سبع) الاحتياطات الوقائية اللازمة، وتعرَّضنا لكافة إفرازات وسوائل جسم المتوفى، وكنّا نتعامل مع المجهول فعليًّا، وكلُّ ذلك كان يعني أنه لو كان صحيحًا ما قاله وكيل النيابة لي من أنَّ المتوفى مصاب بفيروس (كورونا)؛ فسوف تكون نهايتي أنا وعمّ (سبع) وشيكة ودرامية للغاية.. وربما نلقى حتفَنا قريبًا على يد شخص ميت!

حاولتُ أن أتمالك نفسي قليلًا، وقمت بالبحث على الإنترنت عن بروتوكولات التعامل مع جثث المصابين وتشريحها وأخذ العيّنات منها، وبالفعل توصلت لأحدها، وبمجرد مطالعتي لها أدركت أنَّ ما فعلته أنا وعم (سبع) كان بعيدًا كلَّ البعد عن أقل مقوِّمات الحماية من العدوى التي قد ينقلها لنا المتوفى، وكان عليَّ اتخاذ



إجراءات وقائية فورية وكذلك إجراءات للتأكد من إصابة المتوفى بفيروس كورونا من عدمه.

وبالفعل توجَّهت إلى عم (سبع) وقلت له: وصلت لفين يا حاج (سبع)؟

ردَّ بهدوء: أنا قفلتِ الراس خلاص، ومستني أوامر سعادتك يا ريس.

قلتُ له: خلاص انتَ كده.. اقلع الجوانتي بتاعك وروح اغْسل إيدك كويس بالمياه والصابون، وعندك إزازة كحول في شنطتي اغْسل بيها وشّك وايديك ورُشّ منها على هدومك.

نظرَ لي عم (سبع) باستغراب وقال: خير يا باشا؟ إيه اللي حصل؟ قلقتني.

قلتُ له: الاتصال اللي جالي كان من وكيل النيابة وبيقول إنّ احتمال يكون المتوفى مات من الكورونا!

شهقَ عمّ (سبع) بصوت عال وقال: يا نهار اسود! كورونا؟!

قلتُ محاولًا طمأنته: ده مجرد اشتباه وكلام من أهل المتوفى.. بسّ مفيش تشخيص طبي أكيد ولا غيره.. علشان كده نعمل احتياطاتنا.. أنت ابْعد عن الجثة، وعقَّم نفسَك كويس، وأنا هكمل شغل علشان آخذ عينات



من الجثة.

صاحَ عمّ (سبع) في غضب: عيّنات إيه وزفت إيه يا باشا!؟ الله يخرب بيت دي شغلانة.. سيبها تتحرق ويلّا نخرج من هنا.

قلتُ له في حزم وهدوء: إتعقَّم انت كويس، والْبِس كمامة واخرجْ استنّاني برّه المشرحة.. أنا ورايا شغل هنا.. اتوكل على الله وربّنا يسترها معانا.

قامَ عم (سبع) بتنفيذ تعليماتي بكل دقة، وخرج من المشرحة ليتركني وحدي مع الجثمان، وفي الحقيقة لم أشعر بأيِّ ضيق من هذا لأنَّ واجبي كرئيس للمأمورية يحتِّم عليَّ حماية التابعين لي، وعم (سبع) كان مدخنًا شرهًا، ومريضًا بداء السكري وحساسية الصدر، وهو ما يجعله ضحية مثالية لفيروس الكورونا.

قمتُ عقب ذلك بالاتصال بوكيل النيابة وقلتُ له بصوت واضح: بصّ يا باشا، من دلوقت لغاية لما القضية تخلص يا ريت ننسَّق مع بعض كلّ خطوة، وتسمع كلامي لإنّ الوضع اللي احنا فيه سيّئ للغاية.

ردَّ باستسلام وقال: اللي تشوفه يا دكتور.. أنتَ راجل علم، وأهل الطب نسمع كلامهم في الأوقات اللي زي دي.

قلتُ له: تسلم يا باشا.. أيّ واحد من أهل المتوفى كان



مخالط للمتوفى يتحطّ في عزل منزلي فورًا.. حضرتك تصرفهم من سَراي النيابة وتاخدهم في عربية ترحيلات لغاية بيت المتوفى وتحطّ عليهم حراسة لمدة 24 ساعة.

ردّ وكيل النيابة وقال: تمام.. وبالنسبة لنا نعمل إيه؟

قلت له: حضرتك هتتّصل بحَد من الجهات المعنية يرسل لك شخص من الطبّ الوقائي هياخد عينات من ابن المتوفى اللي كان في الصين، ونفس الشخص هييجي لي المشرحة معاه أدوات لأخذ العينات وأنا هاخد عينات من المتوفى.. والمسحات دي تروح بمنتهى السريَّة للمعامل المركزية لوزارة الصحة وتتحلِّل، وخلال 24 ساعة تظهر النتيجة.. لو طلعت إيجابية يبقى كلّنا نروح مستشفى العزل اللي تبع المحافظة ونبدأ بروتوكولات العلاج، ولو طلعت سلبية يبقى نكمِّل شغل في القضية عادي جدًّا، ولغاية ظهور النتيجة هنتحفَّظ على الجثة في المشرحة ومحدِّش يقرب منها ولا تتدفن علشان ميحصلش انتشار للعدْوى، وطبعًا كلّ الإجراءات دي في سرية تامَّة علشان ميحصلش ذعر وشوشرة بدون داعي.

بدَا الارتياح على صوت وكيل النيابة وقال: طيب مفيش حاجة نعملها ولا ناخدها دلوقت كوقاية؟

قلتُ له: لا مفيش خلاص.. حضرتك بمجرد ما تنفِّذ كلامي اطلع على استراحتك فورًا، واعزل نفسك فوق في

غرفتك.. وأنا وعامل التشريح هنطلع على استراحة إدارة الطبّ الشرعي ومعانا باقي العينات.. ومع بعض على تليفون.

قال وكيل النيابة بصوتٍ تشوبه الراحة والهدوء: أوامر سعادتك يافندم.. ربنا يسترها معانا، وفورًا هتلاقي مندوب من الصحة جاي لك باللي انت عاوزه.

انتهى اتصالي بوكيل النيابة وكان كلُّ همي مركَّزًا في محاولة إنهاء هذه المأمورية بأقلّ أضرار ممكنة، وبدون إحداث أي حالة فزع قدْر المستطاع، وفي نفس الوقت عدم تضييع حقّ المتوفى ومعرفة سبب الوفاة الحقيقي لأن كان هناك ما يثير شكي في هذه القضية.

أثناءَ انتظاري لمندوب الطب الوقائي قمتُ بأخذ عينات من دم وبول وأحشاء المتوفى لإجراء التحاليل الكيماوية للبحث عن آثارِ السموم والموادّ المخدرة وغيرها كإجراء احترازي، كما قمتُ بأخذ عينات من القلب والرئتين لإرسالها إلى المعمل الطبي للبحث عن المظاهر المرضية والتأكد عما إذا كانت هي سبب الوفاة من عدمه.

مرَّت حوالي ساعة قبل أن أسمع أحدَهم يطرق على باب المشرحة ويقول: افتح يا فندم أنا مندوب الطب الوقائي.

قمتُ بالتوجه إلى باب المشرحة وأخذتُ منه ثلاثة



مسحات معقَّمة، وقمتُ بالتوجه للجثة وأخذت عينات من حَلْق المتوفى، وعينة أخرى من القصبة الهوائية، وعينة من الرئتين، وقمتُ بإغلاقها بإحكام وكتابة اسم المتوفى وتاريخ أخذ العينة ورقم القضية، ثم قمتُ بتسلميها للمندوب الذي أخبرني أنَّ النتيجة ستظهر خلال 24 ساعة، وأنَّ هناك برقية سرية من النائب العام وصلتْ بالفعل للمعامل المركزية بوزارة الصحة لإظهار النتيجة في أسرع وقت.

قمتُ بالعودة للجثمان وإغلاق الجرح الناتج عن التشريح وتغطية الجثمان بالغطاء، ولم أكنْ أشعر بالقلق على تعفن الجثمان فقد كنا في فصل الشتاء، وهو ما قد يساعد في تأخير عملية التعفن لبضعة ساعات.

عقبَ ذلك قمتُ بتطهير ملابسي وتعقيم نفسي قدرَ المستطاع، ووضعتُ العينات داخل أكياس بلاستيكية محكمة الغلق، وخرجتُ من المشرحة فوجدت مجموعةً من أمناء الشرطة ومعهم ضابط شرطة، توجَّه أحدهم نحْوي بحذر وقال: حضرتك دكتور (مصطفى جاهين) الطبيب الشرعي؟

قلت له: أيوا يافندم تحت أمرك.

ردَّ عليّ قائلًا: إحنا عندنا تعليمات بغلق المشرحة ومنع أيّ حدّ يدخلها.. حضرتك عاوز حاجة من جوَّه قبل ما نقفلها؟



قلت له: لا شكرًا.. محدِّش يقرَّب من المشرحة لغاية لما نعرف الوضع هيبقى إيه!

وعلى الفور توجَّهت أنا وعم (سبع) إلى سيارة الإسعاف الخاصَّة بنا وقلت للسائق: اطلع بينا على الاستراحة.. مش هنرجع على الإدارة.

قال السائق باستغراب: خير يا باشا في حاجة؟!

قلت له: لا مفيش.. هنقضي الليلة هناك النهارده علشان في ظرف كده.

قال السائق وقد ظهرَ عليه أنه قد نما إلى علمِه الأخبار من عم (سبع): اللي تشوفه!

وما هي إلا دقائق معدودة حتى وصلنا إلى الاستراحة وقد كانت قديمة ولم يستخدمها أحدُ منذ فترة طويلة، وما إن دخلناها أنا وعمّ (سبع) حتى بدأ عمّ (سبع) في السُّعال وقال: إيه ده يا باشا؟ شكلي اتعديت كورونا واللّا إيه؟

نظرتُ إلى عم (سبع) باندهاش وقلت له: أنت لحقت يا حاج؟ ده انتَ بسّ عندك حساسية من التراب بتاع الاستراحة.. افتحِ الشبابيك كده علشان نهوّي الاستراحة شوية.

كنت محتارًا في كيفية إخبار أسرتي بالموضوع وتبرير



غيابي عن المنزل لزوجتي، ولكنني اضطررت في النهاية إلى محادثتها هاتفيًّا وإخبارها بالوضع، ولحُسن حظي أنها طبيبة وتفهَّمت الوضع دون ذعر.

مرَّت الليلة طويلةً جدًّا، ولم أستطع النومَ بهدوء، وأصابني الأرقُ طيلة الليل، بالإضافة لهذا كنت أشعر بالجوع بشدة ولم أتناول أيَّ شيء منذ وقت طويل، ولكنّي آثرت عدمَ الاختلاط بأيٍّ شخص إلى حين وصول النتيجة الخاصة بالمسحات.

في صباح اليوم التالي، استيقظتُ من النوم على رنين هاتفي وقد كان المتصلُ وكيل النيابة، وما إن رددتُّ عليه حتى سمعته يقول بسعادةٍ غامرة: ألف مبروك يا دكتور.. لسّه واصلاني نتيجة التحاليل حالًا بالفاكس والحمد لله، النتايج سلبية للمتوفى وابنه اللي راجع من الصين.

قلتُ له في سعادة غامرة: طيب الحمد لله ربنا سترها معانا.. كده بقى نشتغل في القضية بمزاج.. أنا هبعت العينات للمعامل الطبية والكيماوية علشان نعرف المتوفى مات من إيه.. وأنت خلاص خلّي أسرة المتوفى تروح تستلم الجثمان وتدفنه.. بس يا ريت بلاش تقول لهم على نتيجة اختبار الكورونا.

ردَّ وكيل النيابة باستغراب قائلًا: أنت شاكك في حاجة يا دكتور؟!



قلتُ له: أيوه شاكك في حاجة.. بسّ مش عارف إيه هي.. المتوفى كان عنده أمراض كتير ممكن تكون سبب في الوفاة.. وبرضه موضوع الحبر اللّي على صابعه بتاع البصمة ده مخلّيني شاكك في وفاته.

ردَّ عليَّ وكيل النيابة وقال: فعلًا موضوع البصمة ده سبب الموضوع كله، الابن الأصغر للمتوفى اشتكى لأنه لما عرف إن أبوه مات وراح علشان يشوف الجثمان لقى الحبر دَه على صابع المتوفى، وفي خلافات بينه وبين الأخ الكبير اللي كان عايش مع المتوفى بسبب توكيلات تجارية وغيره، واتّهم أخوه الكبير إنه قتل الأب علشان يستولي على التوكيلات دي ويحرم باقي الإخوة منها.

قلتُ لوكيل النيابة: كلّ شيء جايز. وأنا شفت حالات مماثلة لكده، بسّ خلينا متكتمين على موضوع الكورونا ده لغاية لما نعرف سبب الوفاة الحقيقي.

أنهيتُ الاتصال مع وكيل النيابة وقمت بإيقاظ عمّ (سبع) من النوم وقلت له: قوم يا حاج.. براءة الحمد لله.. محدّش طلع عنده كورونا.

بدتِ السعادة على وجْه عمّ (سبع) وقال: بجدّ يا دكتور (مصطفى)؟!

قلتُ له: أيوه بجد.. اتّصل بالسواق ييجي ياخدنا نروّح بيوتنا، ويودّي العينات للمعامل علشان نعرف الراجل



مات من إيه.

وقمتُ بالاتصال بزميلي خبير السّموم بالمعمل الكيماوي، وطلبت منه سرعةَ الانتهاء من تحليل العينات والكشف عن السموم والمخدرات بها بأسرع وقت، وفعلتُ المثلَ مع زميلي طبيب المعمل الطبي للبحث عن أية معالم مرضية في العينات من شأنها إحداث وفاة المذكور.

عدتُّ إلى منزلي، وبمجرَّد دخولي للمنزل وجدتُّ زوجتي تقف وراء الباب وهي تنظر لي بشكٍّ وتقول: اقف مكانك لغاية لما اجيب إزازة كحول وأرشَّها عليك.

ضحكتُ بصوت عالٍ وقلت لها: لا متقلقيش خلاص.. أنا براءة.. محدش عنده كورونا.

بدَا الارتياب على وجهها وقالت: بجد؟!

أخرجتُ موبايلي من جيبي وأرسلت لها رسالةً على موبايلها تحمل صورةً من الفاكس الذي وصل وكيل النيابة والذي يفيدُ بخلوّ العينات من العدوى بفيروس كورونا.

وما إن قرأتْ زوجتي الرسالة حتى ابتسمت وقالت: عيش حياتك.

قلتُ لها: اعملي لي أيّ حاجة آكلها أحسن أنا بقى لي



24 ساعة من غير أكل.. على ما أغير هدومي وآخد دش.

وما إن توجَّهت لغرفتي حتى استلقيتُ على سريري واستغرقتُ في النوم لفترة طويلة من فرط الإرهاق البدني والنفسي.

مرَّ يومان عقبَ ذلك، وفي أثناء وجودي في مكتبي بإدارة الطب الشرعي ورَدَني اتصالٌ من زميلي خبير السموم بالطب الشرعي ليبلغني بخبرٍ كان كفيلًا بتغيير مَسار التحقيقات بالكامل، وجعلني أشعر أن مجهودي في القضية لم يذهب هباء، فقد اكتشفَ زميلي بتحليل العيّنات بوجود نسبةٍ عالية التركيز من مادة الـ (Fentanyl- فنتانيل) المخدِّرة، والنسبة كانت قاتلةً وكافية لإحداث الوفاة بصورةٍ فورية عن طريق التسبُّب في فشل بمراكز المخ المسئولة عن التنفس، وبالتالي حدوث الوفاة.

كانت كلُّ المؤشرات التي رأيتُها على الجثمان والمعالم التشريحية تتطابَق مع نتيجة تحليل السموم والتي تؤكد أن الوفاة حدثت نتيجةَ فشل في الجهاز التنفسي؛ مما دَفعني للاتصال بوكيل النيابة، وقلت له: الراجل مات مقتول يافندم.. تمَّ إعطاؤه جَرعات مميتة من مخدِّر الـ (فنتانيل) أدَّت لحدوث وفاته بصورة فورية.. ابدأ تحقيقاتك من أوّل وجديد مع المشتبه فيهم.



ردَّ عليَّ وكيل النيابة بانفعال: أنت متأكد يا دكتور (مصطفى)؟

قلتُ له بثقة: أيوه متأكد.. شوف مين آخر شَخص تواجَد معاه، وشوف مين اللي أعطى له حُقن وريدية وعلاج، ومين كان مُلاصق ليه، واضغطْ عليه بنتيجة تحليل السموم وأنت هتعرف الحقيقة.

مرَّت عدةُ ساعات قبلَ أن أتلقى اتصالًا من وكيل النيابة قائلًا: كلامك صحّ يا دكتور، وبالفعل الابن الأكبر هو اللي قتل الأب.. الاعترافات هبعتها لك مكتوبة على الواتس أب، ويا ريت تقرير التشريح يوصلنا في أقرب وقت.

وبالفعل، بعدَ لحظات وصلتني رسالةٌ لصورة ضوئية من ملفّ التحقيقات، وكانتِ الاعترافات تدلُّ على قدرٍ كبير من البشاعة والخسَّة لدى القاتل الذي كان هو الابنَ الأكبر للقتيل.. وجاءت الاعترافات كالآتي:

أنا كنت دراع أبويا اليمين في كلّ حاجة، وكنت اللي شايل الشغل كله على كتافي.. التوكيلات التجارية بتاعة المستلزمات الطبية والصيدلية مكانش حدّ يعرف فيها ولا يقدَر يشغَّلها غيري بصفتي دي كانت دراستي وشُغلي من زمان.. في آخر سفرية للصين واحد من الشركاء الصينيين قال لي إن أبويا شال اعتماد توقيعاتي من على الصفقات.. ساعتها حسّيت إن في حاجة غلط



بتحصل، وإن أبويا هيضيَّع مجهود السنين بتاعي، ويساويني بإخواتي اللي متعبوش ولا عرقوا نقطة عرق واحدة في الشغل ومعَ كده كانوا مستمتعين بخيري وشقايا.. لما رجعنا مصر اتكلمت مع أبويا في الموضوع ده قام مزعَّق لي واتهمني بالطَّمع، وإني عاوز أخالف شرع الله في الورث، وقال إنه هيكتب كلّ حاجة حسب الشرع وإنه مبخلش عليّا بحاجة.. عملت نفسي سمعت كلامُه واتأسِّفت له.. بسّ كان الشيطان ركبني خلاص، وقرَّرت إني مش هسيبه ياكل عليّا شقى عمري.. استغلّيت إنه صدره تِعب، وبدأ ياخد علاج ومحاليل، وجبت أمبولات الـ (Fentanyl) وحطيتها له في المحلول.. وراقبته وهوّ بيموت.. وأول لما مات جبت عقود بيع وشراء وخدتّ بصمتُه عليها كإنه باع لي شركة المستلزمات الطبية.. ورُحت مبلَّغ اخواتي بموت أبويا، وقلت على موضوع الكورونا علشان يخافوا وندفن الجثة بسرعة.. معرفش إنهم هيشكّوا فيّا بعد ما أبويا قال لهم على الخناقة اللّي بينّا.. أنا معرفش عملت كده إزاي، بسّ ابويا كان هيظلمني وربنا مايرضاش بالظلم!

كانتِ الاعترافات مثيرةً للغثيان بالفعل حيث كانت تحمل مزيجًا بشعًا من الطمع والخيانة والخِسَّة بين طياتها، ولم يكن هناك أيُّ نقطة إيجابية في هذه القضية والاعترافات سوى أنها أبعدتْ عن عاتقي شبحَ الإصابة بفيروس الكورونا.. ولو بصورة مؤقَّتة!



المحادثةُ الصّامتة

كان يومًا عاديًّا كأيٍّ يوم في المشرحة إلا أنَّي ذهبت قبلَ الجميع ودخلت إلى غرفة التشريح لإلقاء نظرةٍ على جثمان المتوفاة المغطّى بغطاء أبيض، وبتلقائية كشفت رأسَ المتوفّاة وفتحت عينيها.. فتناهى إلى سَمْعي صوتٌ يقول: صباح الخير!

نظرتُ للمتوفاة وقلت بتحفُّز: صباح النور.. ده صوتك واللّا أنا بكلِّم نفسي؟!



قالت: غالبًا بتكلم نفسك بسّ بصوتي.. مشكلتك الأزليَّة إنك بتحطّ نفسَك مكان اللي قدامك، حتى لو كان ميت.

أنا: يعني ده كان صوتك فعلًا وانتِ عايشة؟!

هي: مش قوي.. هوّ صوتي يبان دلوقتِ مُرهق شوية علشان ميتة وكده.

أنا: طيب قوليلي إيه اللي حصل؟

هي: لو أنتَ مهتم هتعرف لوحدك!

أنا (مبتسمًا): والاهتمام مبيطلبش وكده يعني..

هي بجديَّة: لأ المرَّة دي أنا طالبة اهتمامك.. دي أوِّل مرة أطلب الاهتمام من حدّ، لإنّ دي آخر فرصة حدّ يعرف اللي حصل لي.

أنا: حاضر والله.

هي: ممكن أعرف أنا بالنسبة لك إيه؟

أنا: الحالة رقم 1123 اللي اشتغلها.

هي: على فكرة، لو أنا لسّه عايشة كنت زعلت إني مش الأولى والوحيدة عندك.. بسّ دلوقتِ أنا يهمني فعلًا كل خبرتك اللّي خدتّها في الـ 1122 حالة اللي قبلي.



أنا أنظر في ساعتي: تمام جدًّا.

هي: ومن فضلك متبصِّش في ساعتك وانتَ معايا.. انسى الوقت خالص وكلّ حاجة.. أنا اهتمامك الأول والأخير لو سمحت.

أنا: حاضر والله.. بسّ انتِ عارفة إحنا هنعمل إيه بعد شوية؟

هي: الـ 1122 اللي قبلي قالولي انتَ بتعمل إيه في شغلك.. طبعًا كتير منهم مش مبسوطين باللّي حصل.. بس أنا ميهمنيش خلاص.

أنا: ميهمكيش خلاص!؟

هي: أيوه.. وأنا عايشة اشتكيت كتير، وحتى صرخت ومحدِّش سِمعني، ولا اهتمّ، ومحدِّش رَحمني.. فمش فارق معايا اللي هيحصل معايا دلوقت.. المهمّ تعرف اللّي حصلي وتوصَّل صوتي.

أنا بتأثر واضح: حاضر.

هي: لاااا.. لو هتزعل وتعيَّط اطلع أقف برَّه مع اللّي عاملين نفسهم بيعيَّطوا وزعلانين عليّا.. وهات لي حدّ جامد يعرف يتصرَّف هنا.

أنا: لا خلاص.. أنا بقيت كويس.

هي: في حدّ جاي؛ سلام.



أنا: طيب بسّ قوليلي اللي حصل.

هي: آسفة.. معلش مش قادرة أتكلّم خلاص.. مش قادرة آخد نَفَسي حتى.. مش قا....

واختفى الصوت فورَ دخول باقي فريق التشريح، وظللتُ أنا أنظر إلى عينيها ربما أرى بعينيها ما حدث لها !



القضيةُ الرّابعة

(مصرعُ نجمة)





كان اليومَ الأول لي في مشرحة زينهم عقبَ صدور قرار ترقيتي إلى طبيب شرعي على الدرجة الأولى بعدما يقرب من 15 عامًا من العمل كطبيبٍ شرعي، وكنتُ بالفعل قد قمتُ بتشريح خمسِ جثث لضحايا في قضايا مختلفة في احتفال صاخب بالتَّرقية، وكانت الساعة حوالي الرابعة عصرًا.. وتوشكُ ساعات العمل على الانتهاء وفقًا للقوانين المنظمة لإجراء الصفة التشريحية على جثث المتوفين، ولكن فجأة اقتحم المشرحةَ عددٌ كبير من الأشخاص، ويرافقهم مجموعة من الصحفيين الذين أخذوا في التقاط صورٍ للمكان بصورة غير مفهومة، وفي وسط هذه الفوضى رأيت أربعةَ أمناء شرطة يقومون بحمل جثمان شخصٍ ما ويضعونه على طاولة التشريح، ثمَّ تبعهم عدةُ أشخاص تبدو عليهم أنهم ذوو حيثيَّة.

في البداية، تركت مكاني ووقفت أراقبُ من بعيد ما يحدث، خاصَّة وأنَّ المناوبة قد انتهت، وأنه لن يتمَّ إجراء أي تشريح لأي جثةٍ إلا في صباح اليوم التالي، إلا إنَّه بعدَ دقائق جاءني عاملُ التشريح وبرفقته رجلٌ يرتدي بدلة أنيقة ومعهما شخص تبدو عليه علاماتُ الحزن، وبادرني الشخصُ ذو البدلة الأنيقة قائلًا: مساء الخير يا دكتور.

رددتُّ عليه بتحفُّظ قائلًا: مساء النور يافندم.. تحت أمرك.



قال الرجل: أنا (عماد خيري) وكيل النائب العام من نيابة (.....) حضرتك الطبيب الشرعي هنا؟

قلتُ له: أيوا يافندم.. أهلًا وسهلًا بحضرتك.. أؤمر.

قال لي بنبرةٍ تشوبها الرجاء: معانا جثمان الفنانة (.......)، وللأسف وفاتها فيها شُبهة جنائية، والأمر محلّ اهتمام النائب العام شخصيًّا نظرًا لأنَّ الأمر ممكن يقلب لقضية رأي عام في أيّ لحظة.. والمطلوب بعد إذنك نخلَّص التشريح النهارده، ونستصدر قرارًا بدفن الجثمان في أسرع وقت علشان الأمور تهدى شوية.

كنتُ متفهِّمًا لموقف وكيل النيابة وملابسات القضية، إلا إنَّ تشريح الجثمان بعد ساعات العمل الرسمية لم يكن من سلطتي، مما اضطرَّني لأن أجيبه قائلًا: والله يافندم تشريح الجثمان بعْد ساعات العمل الرسمية مش من سلطتي.. اتفضل معايا نطلع لكبير الأطباء الشرعيين.

وبالفعل توجَّهت بصحبة وكيل النيابة إلى مكتب كبير الأطباء الشرعيين بالطابق الثاني، وطرقت الباب مستأذنًا قبل أن ألقي التحيةَ على كبير الأطباء الشرعيين وأقوم بتعريفه بوكيل النيابة، وتركتهما بمفردهما للتشاور واتخاذ القرار وذهبت إلى مكتبي مستعدًّا للمغادرة.

وما هي إلا دقائق حتى وجدتُ كبير الأطباء الشرعيين



يستدعيني إلى مكتبه للأهمية، فتوجهت مسرعًا إليه، وما أن دخلت إلى مكتبه- حيث كان بمفرده- حتى ارتسمتْ ضحكة على وجهه وقال: أنت مُرزَق يا درش.. جايلك قضية هتخلّيك نجم مشهور.

ابتسمتُ ببلاهة وقلت له: قضية إيه يا (ريس).. بلاش قضية المرحومة الفنانة.. أنا غلبان ومش حِمل أي بهدلة ولا شغل إعلام وصحافة.

ابتسمَ وقال بصوت هادئ: متخافش يا جدع أنتَ وجمّد قلبك.. مش هتبقى لوحدك.. أنا قاعد أهو في مكتبي وهتابع معاك الوضع لحظة بلحظة.

قلتُ له مازحًا، ومحاولًا التنصلَ من القضية: طيب يا ريس يبقى البركة فيك بقى، وحضرتك كبيرنا إنك تاخد قضية بالأهمية دي، خاصّة إنها هيبقى فيها شوشرة جامدة.. والقضايا الكبيرة تليق بالكبير.

تغيَّر وجه كبير الأطباء الشرعيين وظهرتِ الجديَّة على وجهه وهو يقول: مينفعش كبير الأطباء الشرعيين يبقى في الواجهة كده في مباشرة القضايا.. لازم يبقى خطّ الدفاع الثاني في القضايا اللي زيّ دي، بحيث لو تعقَّد الأمر يبقى كبير الأطباء هو المرجعية اللي ممكن تصحَّح مسار الأمور.. إنما لو القضية بدأت من الأوَّل بوجود كبير الأطباء الشرعيين يبقى مفيش مجال للجدال ولا النقاش في نتيجة تقريره، وبالتالي بتقفل الباب قدام



التعامل مع أيٍّ مفاجآت أو مستجدات في القضية.

على الرغم من اقتناعي بوجهة نظرِ كبير الأطباء الشرعيين إلا أنّي كان يساورني القلق في تولّي مسئولية قضية شائكة كهذه، فما كان منّي إلا أن قلُت له: اللي تشوفه يا ريس.. أنا هنزل حالًا أشوف الحالة ولو في أيّ حاجة هستعين بمعاليك تليفونيًّا.

ابتسم وقال: بالتوفيق يا درش.. أهمّ حاجة تصوَّر كلّ حاجة في الجثمان علشان تبقى مرجع لينا أثناء إعداد التقرير وعلشان لو حصَل تطورات في القضية نقدر يبقى معانا مستند قوي نقدِّمه للرأي العام وجِهات التحقيق. ويا ريت وكيل النيابة بس يفضَل معاك علشان يبقى شاهد على دقّة العمل في القضية لإنّ ده هيفرق معانا جدًّا.. وعاوزك تسترجع كلّ مهاراتك في القضية دي لإنها يا إمّا هترفع اسم الطب الشرعي لفوق أو هتتسبِّب في مزيد من الجدل حولنا.

كانت كلماتُ كبير الأطباء الشرعيين تحمل مزيجًا من الدعم، ومِن التنبيه في نفس الوقت، وكانت القضية فعلًا من وجهة نظري ليستْ قضية عادية، وسوف تحمل الكثيرَ من المفاجآت في تفاصيلها!

نزلتُ مسرعًا إلى المشرحة بعدَ ارتداء الملابس المخصَّصة للتشريح، ولكني وجدتُ المشرحة مكتظة بأشخاص لا أعرفهم وعشرات الصحفيين والمصوّرين،



وكان بالطبع من المستحيل القيام بأيِّ إجراء إلا بعد خلوِّ المشرحة من كل هؤلاء، فما كان منّي إلا التوجه إلى وكيل النيابة المسئول عن القضية، وخاطبته بهدوء قائلًا: يا ريت يا فندم تأمر بإخلاء المشرحة من كلِّ الناس دي علشان نبتدي تشريح الحالة.. يا إما هضطرّ إني أؤجّل الحالة لبُكره الصبح.

استجاب وكيلُ النيابة بصورةٍ فورية لطلبي، ورفع صوته قائلًا: سيادة الأمين (مختار).. فورًا تخْلي لي القاعة من كل اللي فيها، ومش عاوز بني آدم غيري أنا والسيد الطبيب الشرعي.

سادتْ حالة من الهرج والمرَج في المشرحة، وتعالت أصواتٌ معترضة من بعض الحضور.. فما كان من وكيل النيابة إلا أنْ قال بنبرةٍ حازمة وصوت مرتفع: لغاية دلوقتِ بنتعامل بالأدب والقانون والإجراءات العادية.. لو محدِّش طلع هضطر إلى الاستعانة بالأمن المركزي.. وساعتها الوضع مش هيعجبكم!

كان مجرَّد ذِكر (الأمن المركزي) كفيلًا بجعل الجميع يغادرون المشرحة فورًا دون نقاش، ولكن ظلَّ هناك شخص واحد فقط بجوار الجثمان يبدو عليه التأثر، فأشرتُ للسيد وكيل النيابة بما يعني أنه عليه أن يأمر بإخراج هذا الشخص أيضًا، فتوجه وكيلُ النيابة للشخص وقال له: بعد إذنك يافندم.. أنا عارف إنّ الموقف



صعب.. بسّ يا ريت حضرتك تستريح برَّه علشان نبتدي شغلنا ونخلَّص بسرعة علشان تلحقوا تدفنوا الجثمان قبل مالوقت يتأخر.

التفتَ إليه الشخص وقال: أنا مش ماشي من جنب أختي.. كفاية اللي حصل لها.. هتعملوا إيه تاني فيها؟!

حاولتُ في تلك اللحظة تهدئة الشخص وقلت له: معلش يافندم.. البقاء والدوام لله.. لازم حضرتك تخرج علشان نركز في شغلنا ونقدر نجيب حقّ المتوفاة.. وإنْ شاء الله دمها مش هيروح هَدر.

انفعلَ الشخص وصاح في وجهي قائلًا: أنتَ مين علشان تقولّي أخرج!؟ أنت مش عارف بتكلم مين؟! أنا (....) يعني بمكالمة واحدة للمسئولين ممكن أودّيكم ورا الشمس.. أنتوا عاوزينّي أطلع علشان تتلاعبوا بالجثة والأدلة لصالح المجرم جوزها؟! هوّ علشان جوزها نجم سينمائي وله معارف.. فاكرينّا هناخد على قفانا واللّا إيه؟

بذلتُ مجهودًا كبيرًا لكي أكظم غضبي نتيجةَ ما قاله ذلك الشخص، ونظرتُ لوكيل النيابة نظرةً ذات مغزى وتركته ليكمل الحوار معَ الشخص الغاضب، وسمعته يقول للشخص: كلامك فيه إهانة ليّا كعضو هيئة قضائية مسئول عن القضية، وكلّ كلامك يعاقِب عليه القانون، وبمكالمة واحدة منّي للنائب العام ممكن يتقبض عليك



بتهمة إعاقة العدالة والتدخل في سير القضية.. بس تقديرًا منّي للظروف أنا هدّيك دقيقة واحدة تلقي نظرة على جثمان اختَك وتطلع برَّه.. بعد دقيقة هيبقى موقفك سيئ جدًّا.

ظهرَ الخوف على وجه الشخص الغاضب، وما كان منه إلا أنْ كشف عن وجه المتوفاة وطبعَ قُبْلة على جبينها ورحل في صمت.

في هذه اللحظة، اقتربت من الجثمان رفقةَ وكيل النيابة ثمَّ سألته: هي إيه ظروف القضية يا فندم؟

انطلقت زفرةٌ عميقة من صدر وكيل النيابة قبلَ أن يقول في ضيق: القصة ابتدتِ النهارده الصبح لما تلقّينا بلاغًا بالعثور على جثة الفنانة (....) في حمّام الفيلا بتاعتها في الدور الثاني.. البلاغ جالنا من زوجها الفنان المعروف (......)، طبعًا لما انتقلنا لموقع الحادث كان الوضع غريب؛ جثّة المرحومة على مدْخل الحمام، وفي آثار دم وقيء حواليها، وفي بانيو الحمام كمان، وبمناظرة الجثة لقيناها لسيدة حامل، وكان جسمها مليء بالكدمات، طبعًا بالتحريات عرفنا إنّ الشغالة كانت آخر واحدة شافتها على قيْد الحياة بالليل، الشغالة قالت إنّ وهيّ خارجة من الفيلا قابلت الفنان زوج القتيلة وهو داخل الفيلا في حالة غير طبيعية، وتقريبًا كان متعاطي حاجة، والشغالة مشيت، وبفحْص كاميرات المراقبة



اللي على بوابة الفيلا أثبتت كلام الشغالة، طبعًا إحنا مُحتجزين جوزها دلوقت في النيابة وبنحقَّق معاه لإنّ أسْرة المتوفاة اتَّهمته رسميًّا بقتلها، خاصَّة وإن في خلافات بين الزوج والزوجة في الفترات الأخيرة وصلتْ حتى للإعلام عن طريق تسريبات من أصدقاء الفنانة الراحلة، الزوج بينفي إنه أصلًا شافْ زوجته قبل وفاتها، وبيقول إنه دخل الفيلا ولكنْ نام في غرفة منفصلة في الدور الأول من غير ما يبص على زوجته لإنّه كان مرهق وغير طبيعي، بسّ الفنان ليه سوابق اعتداء بالضرب على زوجاته السابقات من الوسط الفني، وده يخلينا نحطّه كمشتبه به رئيسي، حتى إننا برضه سحبنا منه عينات دم وبول علشان تحليل المخدرات، ودلوقت الحلّ الوحيد في القضية هو بين إيدين الطب الشرعي!

كانت القضية تبدو معقدةً بالفعل، وكانت التفاصيل التي ذكرها وكيلُ النيابة تشير بقوة إلى تورط زوج القتيلة، وهو ما دفعني إلى اتخاذ كافَّة الاحتياطات وتحضير كافة الأدوات الخاصة بالتشريح وأخذ العينات الكيميائية والنسيجية من جثمان المتوفاة، وأيضًا تحضير الكاميرا لأخذ صورة لكلٍّ خطوات وتكليف فني بمهمّة تصوير اجراءات الفحص الظاهري والتشريح.

وفي محاولة منّي لمجاراة أهمية وتعقيد القضية وإضفاء طابع الاهتمام الجادّ بالقضية؛ ارتديت القفازات



الطبية وأمسكت بالمشرط وأدوات القياس، وبصوتٍ يشوبه الرسمية والاستعراضية قلت بصوتٍ واثق مناديًا فني التشريح المساعد لي: يلا يا عم (جبر) ابتدي كده بالراحة.. أنا معاك في تشريح الجثة، ويا ريت مفيش أيّ خطوة إلا حسب توجيهاتي.

ابتسمَ عم (جبر) مدركًا المغزى من طريقتي الاستعراضية في الحديث أمام وكيل النيابة وقال: تمام يا ريس.. توكلنا على الله.

وما إن كشفَ عم (جبر) الغطاء عن جثمان الفنانة المتوفاة حتى أدركت أن وفاتها لم تكنْ طبيعية بالمرّة؛ كانت وفاة شديدة الألم والمعاناة!

كان جثمانُ المتوفاة شديدَ البهاتة مما يدلُّ على أنَّ هناك نزيفًا داخليًّا استهلك كلَّ دمائها، كما كانت هناك كدمات منتشرة بعموم جثّة المتوفاة، وخاصّة في الجانب الأيسر منها، وكانتِ الكدمات متركزةً في منطقة يسار الوجه وبالطرف العلوي والطرف السفلي، وكذلك كان هناك كدمةٌ كبيرة بجدار البطن، كما تبينّا وجودَ سوائل مدمَّمة تخرج من فتحي الأنف والفم، وآثار لقيء جافّ حول الفم.

نظرَ لي وكيل النيابة وقال بحزن: إيه رأيك يا فندم؟ الست دي تمّ الاعتداء عليها بوحشية مش كده؟



رددتُّ عليه بحذر وقلت: والله يافندم اللي أنا مستغرب له فعلًا تركز الكدمات في جهة واحدة من الجسم اللي هي الجهة الشمال وده ليه معنيين؛ الأول إنّ الجاني كان بيستخدم إيده ورجله اليمين فقط، أو إنها وقعت على الجهة الشمال من جسمها.

ردّ وكيل النيابة بهدوء: طيب ما نعرفش نجزم بأي الاحتمالين؟

قلت له بتردُّد: الحقيقة صعب جدًّا.. خلينا نكمل فحص ونشوف في الآخر.

ثمَّ انهمكت في تسجيل وتصوير كلِّ الإصابات والتي كانت كلها كدماتٍ فقط لا غير، وعقب ذلك بدأتُ في اجراء الصفة التشريحية على الجثمان واستكشاف الرأس وتجاويف الجسم جراحيًا.

كانت عظامُ رأس المتوفاة سليمة، ولم يكن بها كسور، وكان كلُّ ما بها آثار للكدمة بيسار الوجه، ولم يكن هناك نزيفٌ بالمخ، وبفحْص الصدر لم يكن هناك إصابات تذكر به.

وباستكشاف البطن تبينًا وجودَ انسكابات دموية غزيرة بجدار البطن، فضلًا عن وجود نزيف دموي داخلي غزير بتجويف البطن، ومن الغريب أننا وجدنا تهتكًا حيويًا في الجزء الداخلي من الطحال وهو مكانٌ غير معتاد



للإصابات سوى في حالات الاهتزاز العنيف للجسد وليس بالضرب المباشر.

وتبينّا أنَّ الرحم كان به جنين ذَكر في حوالي الشهر السادس الرحمي، وكان هناك تجمعٌ دموي خلف المشيمة، ونزيف رحمي من المهبَل، ومن تشريح جثة الجنين تبينّا أنَّ سبب الوفاة هو نقص التغذية الدموية للجنين بسبب وفاة الأم.

كان سببُ وفاة المتوفاة قد اتَّضح في هذه اللحظة وهو تهتكُ الطحال والنزيف الداخلي بالبطن، ولكن لمزيد من التأكد قمنا بأخْذ عينات من الدم والبول والأحشاء للبحث عن آثار السموم والمخدرات والمهدئات بأنواعها، وبالطبع قمنا بتصوير كافة الإصابات الداخلية أيضًا.

عقبَ انتهاء التشريح قمتُ بإعطاء وكيل النيابة إشارةً بانتهاء المهمة مما يمكنه من إصدار تصريح الدفن، واتفقنا على استمرار الاتِّصال فيما بيننا لتبادل ما قد يُستجد من معلومات بخصوص تلك القضية الشائكة.

كانت الأيامُ التالية لهذه القضية شديدةَ الصعوبة، فيوميًا كنا في مصلحة الطب الشرعي نتلقى عشرات الاتصالات من وسائل الإعلام، ومطالبات من الجهات القضائية بسرعة إصدار تقرير التشريح الخاص بحالة المتوفاة، وكان هذا في مجمله يشكل ضغطًا عصبيًا عليّ تحديدًا.



مرَّت عدةُ أيام أخرى قبل أن يصلني تقريرُ المعمل الكيماوي بخلوِّ عينات المتوفاة من أية آثار للسموم أو المخدرات أو المنومات، ولكنْ تبيَّن وجود آثار لعقاري (ميكلزين) و(بيريدوكسين)، وهي عقارات تستخدم كمضادة للقيئ لدى الحوامل.

كانتِ الصورة العامة للقضية قد اتَّضحت، والسببُ الحقيقي للوفاة قد ظهر واضحًا بأنه ناتج عن نزيف داخلي بالبطن نتيجة التهتُّك بالطحال، إلا إنَّ سبب ذلك التهتك كان محلَّ استفهام حيث إنه كان في مكانٍ غير معتاد للإصابات، وكانت النيابة تنتظر تقريرَ الطب الشرعي لبناء قضيتها ضدّ المشتبه به الرئيسي في القضية وهو زوج المتوفاة.

كان الموقف حرجًا مما دعاني للتوجُّه إلى مكتب كبير الأطباء الشرعيين ومناقشة تفاصيل القضية معه، وبعد نقاش مطول حول أيٍّ الاحتمالين عما إذا كانتِ المتوفاة تعرَّضت للضرب من زوجها، أو أن وفاتها بسبب حادث عرضي وسقوطها في الحمام، قرر كبيرُ الأطباء الشرعيين الاكتفاءَ بتوصيف الإصابات وذِكر سبب الوفاة وترك ترجيح طريقة الإصابة لشهادة الشهود وتحقيقات النيابة التي قد تحمل جديدًا لا نعلمه. وبالفعل قمتُ بالأخذ بنصيحة كبير الأطباء الشرعيين وإخراج التقرير على هذه الصورة.



بالطبع لم ينلِ التقرير إعجابَ النيابة العامة نظرًا لأنه لم يحسمِ الأمور فيما يخصُّ المتسبب في وفاة النجمة الشهيرة، وكنت أتوقع أن يتمَّ استدعائي في أيِّ لحظة للمناقشة في التقرير أمام النيابة العامة أو المحكمة، وهذا ما جعلني أتوسع في قراءة كل ما يتعلق بالمشاهدات التي رأيتها أثناء تشريح جثمان المتوفاة.

كانت هناك ثلاثُ نقاط قد جذبتِ انتباهي؛ أوَّلها وجود آثار قيئ على فمِ المتوفاة، وثانيها التهتُّك بالجهة الداخلية من الطحال وكيفية حدوثه، والثالثة وجودُ آثار للأدوية المضادة للقيئ بدم المتوفاة، وبعدَ قراءات مستفيضة تولَّدت لديَّ نظرية حول طبيعة وفاة المذكورة، وكانت ستقلب مسارَ القضية رأسًا على عقب، لولا أنها لا يوجد ما يؤيِّدها في شهادة الشهود أو تحقيقات النيابة؛ لذا قررتُ الاحتفاظَ بتلك النظرية لنفسي مؤقتًا حتى تضطرّني الظروف أو تظهر مستجدات تجعلني أطرحها أمام القضاء.

وكما توقَّعت تمامًا، تمَّ استدعائي أمام محكمة الجنايات للإدلاء بشهادتي حول تقرير الطب الشرعي الذي قمت بإعداده، وبالفعل توجَّهت إلى قاعة المحكمة في الميعاد المحدد، وقد كانت قاعة المحكمة مكتظةً بعشرات الصحفيين ومصوري القنوات الفضائية التي تغطي هذه المحاكمة في القضية التي تحولت إلى قضية



رأي عام.

وخلالَ دقائق دخل قضاةُ المنصة للقاعة، وسادَ الصمت أرجاء المكان، وما هي إلا لحظات حتى قام حاجب المحكمة بالنداء عليَّ للتوجه إلى قرب المنصة للبدء في مناقشتي في تقريري.

كانتِ الأسئلة اعتيادية من محامي المتهم الفنان المشهور، وكانت تدور حولَ طبيعة الإصابات ومكانها وسبب الوفاة، وفي الحقيقة كنت أشعرُ بالضجر من أسلوبه الروتيني، خاصّة أن كلَّ ما قلتُه كان مدوَّنًا بالفعل في تقريري، ولكن فجأة تغير مسار الأسئلة عندما سألني بصورةٍ مباشرة قائلًا: هل من المعقول أنَّ كل إصابات المتوفاة تبقى في ناحية واحدة بس من جسم المتوفاة؟! هل يُعقل أنَّ موكلي بكلٍّ ما أوتي من قوة وشراسة كما ورد في وصف الادعاء إنه ميضربش المتوفاة شلوت في ضَهرها أو يضربها بالقلم في وشّها أو يبقى في لكمة في صدرها؟!

كان سؤال المحامي غايةً في الذكاء، وينمُّ عن فهمٍ جيد للتقرير، فما كان منّي إلا أن قلت: الحقيقة لو إنّ المتهم بيستخدم إيده اليمين بسّ في التعدي على المتوفاة.. فدَه ممكن يخلّي كل الإصابات في الناحية الشِمال من الجسم، إنما المتوقع إن في أي خناقة واعتداء منزلي إنّ المعتدي يستخدم إيديه الاتنين، وحتى كمان رجليه،



وبالتالي الإصابات تبقى في أماكن متفرقة في جسم المجني عليها!

ابتسمَ محامي الدفاع قبل أن يسألني سؤالًا آخر، وقال: طيب مش ممكن تكون المتوفاة وقعت في الحمام واتخبطت في بطنها ودَه عمل لها تهتُّك في الطحال ونزيف داخلي وسبب الوفاة دون أن تتعرض لأي اعتداء؟

ابتسمتُ في هدوء وقلت بثقة: وارد برضه الاحتمال ده، بسّ ما عدا نقطة واحدة.. إنّ طبيعة التهتك صعب تيجي من الارتطام بالأرض أو بالضرب المباشر، لإن التهتك كان في الجهة الداخلية من الطحال، وده مكان فيه حماية كويس للطحال ومحتاج طبيعة خاصة جدًّا لسبب حدوث التهتك.

اندهشَ محامي الدفاع من ردّي وقال بصوت عال: حيَّرتنا معاك يا دكتور، يعني التهتك ده حصل إزاي؟ من ضربة واللّا من وقْعة؟ جنائي واللّا قضاء وقدر؟ الكلام اللي هتقوله هيفرق معانا يا فندم!

كانتْ هذه هي اللحظة المناسبة من وجهة نظري لطرح نظريتي الخاصة بوفاة النجمة الشهيرة، فما كان منّي إلا أن قلتُ مبتسمًا: معلش اسمحوا لي أنا عندي نظرية قد تبدو غريبة شوية، ولكنها تفسّر طريقة وفاة المذكورة، ويمكنكم نفيها أو إثباتها بمزيد من التحقيقات.



ردَّ قاضي المنصة وقال بحذر: اتفضَّل يا دكتور، ويا ريت تعلّي صوتك شوية.

رددتُّ بصوت عالٍ قائلًا: تخيُّلي للمشهد إن المتوفاة رحمة الله عليها كانت تعاني من قيئ مُستمر في يوم الوفاة والدليل على كده وجود آثار للقيئ في مسرح الواقعة، وعلى جثمان المجني عليها، وبالفعل تبينّا بالفحص الكيماوي لدم المذكورة وجود آثار لعقارات بتُستخدم في علاج القيئ عند الحوامل.

بدَا الضجرُ على وجه قاضي المنصَّة وقال: يعني قصدك ماتت من الترجيع يا دكتور؟

قلتُ له بهدوء: اعذرني معالي المستشار.. سبب الوفاة مش القيئ، ولكنْ نتيجة القيئ المستمر وانقباض المعدة بشدة أثناء القيئ، فدَه ممكن يعمل شدّ وجذب شديد على الناحية الداخلية من الطحال المجاور للمعدة والملتصق بها، وفي حالات نادرة بيحدث تهتُّك في الجزء الداخلي من الطحال، وهو الجزء الملاصق للمعدة، وده ممكن يسبب نزيف داخلي حاد ويتسبب في وفاة المذكورة ببطء شديد، الأول هيحصل لها هبوط في ضغط الدم نتيجة النزيف، وهتدوخ وتضعف، هتحاول تستنجد بحَد ومش هتقدر، هتزحف على أرضية الحمام وتفقد الوعي وتموت ببطء من النزيف الداخلي.

هنا انتفضَ المحامي الموكل من أسرة المتوفاة وقال:



السيد الطبيب الشرعي جاي يجرَّب نظريات عجيبة ويقترح طرق جديدة للموت، ومش واخد باله إنه بكده بيضيَّع حق المتوفاة وبيتسبب في إطلاق سراح قاتل شرس.

شعرتُ بغضب شديد من كلام المحامي، ولكنني تمالكت نفسي، وفي نفس اللحظة ساد الهرجُ أنحاء القاعة قبل أن يتدخل قاضي المنصَّة بحزم ويقول بصوت عالي: هدوء من فضلكم.

ثمَّ توجَّه لي بالحديث قائلًا: اللي حضرتك بتقوله ده يا دكتور نظرية خاصَّة بيك.. بسّ هل في أي دليل مادي يؤيدها؟

قلتُ بهدوء: الأدلة اللي أنا قلتها كلها مبنيَّة على المشاهدات اللي شفتها على الجثة وبناء على مراجع وأبحاث علمية.

ردَّ القاضي بصوت عالٍ، وقال: بسّ للأسف شهادة الشهود والأدلة المادية مش ماشية مع كلامك.

في هذه اللحظة صاحَ المتهم زوج المتوفاة بصوتٍ عال وقال: يا سيادة المستشار.. يا سيادة المستشار.. والله العظيم عندي الدليل المادي على براءتي، أقسم بالله ما قتلتها ولا لمستها.

سادَ الهرج مرةً أخرى أنحاء القاعة قبل أن يتدخَّل



قاضي المنصة لإعادة الهدوء، وقال مخاطبًا المتهم: إيه دليلك يا أستاذ؟

قال المتهم بصوت عالٍ: معلش يا معالي المستشار عاوز أقولك بعيد عن الحاضرين لإنه أمر شديد الخصوصية.

تعالتْ أصوات غاضبة ومُستهجنة في أنحاء القاعة، مما دعا القاضي إلى رفع الجلسة واستدعائنا جميعًا إلى غرفة المداولة، وما إن دخلنا غرفةَ المداولة حتى قال المتهم: يا سيادة المستشار أنا عارف إنّ اللي هقوله غريب ويمكن يكون مقرف كمان، بس أنا حاطِط كاميرات مراقبة في الحمام اللي لقيتوا فيه المرحومة.

بدَا الغضب على وجه القاضي وقال: كاميرات مراقبة في الحمام؟ هوّ انتَ مريض نفسي واللّا شاذ يا أستاذنا؟!

ظهرَ الخجل على وجْه المتهم وقال: والله أنا عارف إنّ اللي عملته غلط.. بسّ أنا شديد الغيرة وعملي في الفنّ خلاني موسوس وشديد الشك، وده سبب خلافاتي الزوجية مع طليقاتي، ومع أيٍّ واحدة ارتبطت بيها، سامحوني بس الكاميرا دي ممكن تبقى سبب براءتي!

بدَا الامتعاض على وجه الحاضرين جميعهم، ولكنَّ القاضي بمنتهى الحنكة توجَّه بالحديث إلى عضو النيابة وقال: تقدروا تفرغوا محتويات الكاميرا دي خلال قد



إيه؟

ردَّ عضو النيابة بسرعة: مسرح الجريمة على بُعد نُص ساعة من هنا، يعني خلال ساعتين يكون محتوى الكاميرا جاهز للعرض قدّام سيادتك.

نظرَ لي القاضي وقال: معلش يا دكتور تقدَر تنتظر معانا لغاية لما نشوف محتويات الكاميرا مع بعض؟

قلت له مبتسمًا: تحت أمرك طبعًا يا فندم.

قال القاضي مبتسمًا: ترفع الجلسة على أن تنعقد خلال ساعتين.

كانتْ بالفعل من أطول اللحظات التي قضيتُها في حياتي، كنت أخشى أن تكشف الكاميرات مفاجأة غير سارة لي على الأقل، أو أن تذهبَ بشهادتي أدراج الرياح، وفي نفس اللحظة لم أرغبْ أن تكون شهادتي سببًا في ضياع حق المتوفاة وإطلاق سراح قاتل محتمل، كنتُ في صراع داخلي بين أن أكون على حق وانتصر لنفسي وعقلي، أو أن أكون على باطل وأضيِّع حق الآخرين، وبتلقائية لم أشعرْ بنفسي إلا وأنا أردِّد قائلًا: ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.

مرَّت الساعتان كأنهما دهرٌ بالنسبة لي قبل أن يأتي وكيلُ النيابة بجهاز العرض وعليه تفريغ تسجيلات الكاميرا وقام الفني المختصّ بتجهيز العرض قبل أن



تجتمع هيئة المحكمة في حضور المحامين ويبدأ عرض التفريغات..

ظهرتْ في البداية المتوفاة وهي تدخل الحمام في حالة غير طبيعية وتقوم بالتقيّئ عدَّة مرات ثم تخرج من الحمام، وتكرر المشهد بنفْس التفاصيل على مدار عدَّة ساعات، حتى أتت لقطة تبدو فيها المتوفاة في حالة إعياء، وبالكاد تستطيع السير، وقامت بالتوجُّه إلى الحمام وما إن دخلت الحمام حتى سقطت أرضًا على جانبها الأيسر بعنف، وحاولت النهوض ولكنها كانت في حالة إعياءٍ تام، وزحفت حتى مدخل الحمام قبل أن تخمدَ حركتها تمامًا، ثمَّ عقب ذلك تأتي لقطات لاكتشاف جثتها بواسطة زوجها وطلبه للنجدة وحضور المسْعفين والشرطة وأعضاء النيابة والأدلة الجنائية.

وإلى هذا الحدِّ قرَّر القاضي وقف العرض، قبل أن تضاء أنوارُ غرفة المداولة ويظهر الوجوم والحزن على وجوه جميع الحاضرين بسبب مُشاهدتهم للحظات الأخيرة في حياة المتوفاة، ولكن السعادة الغامرة بدتْ على وجه المتهم الذي صاح في فرحة غير طبيعية: الحمد لله.. الحمد لله.. ربنا أثبت براءتي.

وفي خطوة غير متوقَّعة وجّه المتهم حديثَه لي وقال: ألف شكر ليك يا دكتور، أنت جميلك ده هيفضل طول عمره في رقبتي، أنتَ راجل محترم وربنا يخليك للعدالة.



وعلى الرغم من أنَّ الفيديو أثبت نظريتي إلا أنَّني كنت أشعر بالامتعاض من المتهم لأنه ترك زوجته لمصيرها المحتوم بمنتهى النَّذالة.. فضلًا عن تصرفه الشاذ بوضع كاميرا مراقبة بالحمّام، وفي هذه اللحظة لم أستطع كبح جماح نفسي ووجدتني أرد عليه بطريقةٍ جافة قائلًا: شهادتي بما يمليه عليَّا ضميري، وعلمي ملوش أيّ دعوة بشخص حضرتك أو كونك نجم مشهور.. ده مجرَّد عمل فقط لا غير.. بسّ الحقيقة حضرتك فعلًا أثبتّ إنك مجرَّد ممثل مدعي فقط لا غير.. تدَّعي الرومانسية والمثالية قدام الشاشة لجذب إعجاب المشاهدات، تنقذ بطلةَ الفيلم من الموت وتواسيها في أحزانها ولكنك في حياتك الحقيقية، أنت إنسان معدوم الضمير والمسئولية والإنسانية.. تركتَ زوجتك تموت ببطء ويموت معاها إبنكم علشان أنت على خلاف معاها ومسْتخسر حتى تطمنّ عليها.. شهادتي كانت لوجْه الله ولوجه العدالة فقط لا غير.. مكانتش علشان خاطرك.

سادَ الصمت للحظاتٍ ونظر المتهم بخجلٍ إلى الأرض قبل أن يقول القاضي: فعلًا يا دكتور شهادتك لوجه الله والعدالة، وده عهدنا بكم، آسفين على تعبك وتأخيرك، بسّ شهادتك فرقت كتير معانا.. تقدر تتفضل دلوقت.. مع السلامة.

تركتُ المحكمة وأنا أشعر بحزن عميق من جرّاء



مشاهدتي لمشهد وفاة الفنانة المشهورة ببطء واحتضارها المؤلم بمفردها، وعلى الرَّغم من اعتيادي لرائحة الموت إلا إنَّ مشاهدة شخص يحتضر كان أمرًا مؤلمًا بالنسبة لي.

مرَّت الأيام وانتهتِ القضية ببراءة النجم المشهور من تهمة مقتل زوجته، إلا إنَّ التسريبات من قاعة المحكمة وتفاصيل القضية المخزية قضتْ على مستقبله الفني تمامًا، مما أجبره على الاعتزال، لتنتهي القضيةُ بموت نجمة مشهورة، وخفوت ضوء نجم مزيف مُنعدم الضمير!



سنواتٌ في ثلاجةِ الموتى



في ثلاجةِ الموتى، يتجمد كلُّ شيء حتى الزمن.. فما إن تدخلها حتى يتوقف إحساسُك بالزمن ولا تعرف كم لَبِثت فيها إلا حين تخرج.

في ثلاجة الموتى، من المتوقع أن يسود المكانَ البرودة.. إلا إنَّ عَرقي دائمًا ما يتصبَّب بغزارة وكأن هناك مصدرًا غير مرئي للحرارة في المكان.

في ثلاجة الموتى، يسود صمتٌ غريب لا يقطعه سوى أزيز المبردات، وصوتُ فتح وغلق أبواب الثلاجات.

في ثلاجة الموتى، تتضاعف قوةُ حواسي بصورة غير طبيعية.. أرى ما لا يراه غيري.. وأسمع ما لا يسمعه غيري.. وأشم ما لا يشمه غيري.

أمّا عن الشم.. فحدِّث ولا حرج.. تخبرني الرائحة من بعيدٍ- ودون أن أرى- أنَّ هذا ضحية حريق هائل.. ورائحة



الدماء تخبرني أنَّ شخصًا قد تمَّ نحرُه ببشاعة.. ورائحة أخرى تخبرني أنَّ شخصًا ما قد قضى نَحبَه منذ عدة أيام دون أن ينتبه أحدٌ لموته إلا دابة الأرض.. وتلك الرائحة لغريق ابتلعه البحر لأيام ثم لَفَظه.

في ثلاجة الموتى، تتحول أسماءُ البشر إلى أرقام، وتتبدل مساكنهم المتسعة إلى عيون ضيقة، ويفر الأهل ويولّون الدُّبُر.

في ثلاجة الموتى، يستوي الليل والنهار، والحَر والبرد، والفقير والغني.

في ثلاجة الموتى، تنكشف أغرب الأسرار، وتبدأ رحلة التمايز بين الأشرار والأخيار.

في ثلاجة الموتى.. أنتَ محظوظ إن دخلتَ وخرجت على قدميك.



القضيةُ الخامسة

(مهمّةٌ انتحارية)





انطلقَ هاتفي في رنينٍ متواصل لأكثرَ من مرةٍ في تمام الساعة الخامسة من فجر ذلك اليوم، ومن المعروف طبعًا أن اتصالات الفجْر لا تحمل أيَّ بُشرى لأيٍّ شخص مهما كان!

باستغرابٍ نظرت إلى الرقم المتصل، وكان لكبير الأطباء الشرعيين، وعلى الفور قمتُ بالرَّد لأجد كبير الأطباء يقول بانفعال: صباح الخير دكتور مصطفى.. جرى إيه ما بتردش ليه؟!

قلتُ بدهشة محاولًا استيعابَ ما أسمعه: صباح النور يا فندم.. معلش والله كنت نايم بس.

ردَّ كبير الأطباء الشرعيين بانفعال: نايم إزاي وفيه مصيبة عندَك في المحافظة.. أنت مسمعتش عن الحالة اللي عاملة قلبان عندَك من امبارح؟

سألتُه باندهاش: حالة إيه يا فندم؟ مفيش حدّ من الشرطة ولا النيابة كلمني!

قال مسرعًا: حالة وفاة اشتباه عدوى إيبولا.. الدنيا مقلوبة والشرطة عملت كردون حوالين المستشفى اللي فيها الجثة والنايب العام كلمني.

قلتُ باستغراب: واحنا ما لنا ومال حالات إيبولا يا ريس! أومّال بتوع وزارة الصحة والحجر الصحي والوبائيات بيعملوا إيه؟ مش احنا بتوع جرايم وبس؟



قال بانفعال: إحنا بنفِّذ تعليمات النيابة وبس.. المتوفى لما اتنقل المستشفى كانت عليه أعراض تسمُّم حاد وترجيع وإسهال وارتفاع في درجة الحرارة، وبعدها بدأ ينزف من مناخيره ومن الفم، وعملوا له صورة دمّ طلع انخفاض حاد في كرات الدم البيضاء والصفايح وفشل كبدي وكلوي، وبأخذ التاريخ المرضي اتَّضح إنه لسّه راجع من دولة إفريقية مشهورة بالإيبولا!

في محاولة يائسة قلت له: يافندم الحالات دي أصلًا ممنوع تشريحها زيّ ما حضرتك عارف، ولو اتشرحت لازم سبب قوي واحتياطات صارمة.

قال كبيرُ الأطباء في حزم: الموضوع ليه جانب تاني.. أخت المتوفى اتهمت زوجته بإنها سمِّمته نظرًا لوجود خلافات زوجية بينهم.. يعني للأسف لازم ناخد عيّنات سواء سموم أو لتحليل الإيبولا.. إجهزْ يلّا علشان هتروح انتَ وفني التشريح مشرحة في مستشفى عزل مقفولة من فترة علشان تعملوا التشريح.. وكلّ الإمكانيات هتتوفَّر لكم.. الموضوع فيه جهات سيادية تدخَّلت فيه ولازم نكون عند حسن ظنهم.

أغلقَ كبير الأطباء الشرعيين الهاتف بعدَ هذه الجملة، وكانت تعني بمنتهى الوضوح أنه لا مجال لإلغاء مأمورية التشريح تحت أيِّ ظرف، وكان كلُّ ما عليَّ هو الاستعداد لهذه المهمة الانتحارية!



على الفور قمتُ واغتسلت وتوضأت وصليتُ الفجر، ودعوتُ الله أن تمرَّ هذه المأمورية بسلام، وقمت بتصفح عدةَ مواقع طبية عن كيفية التعامل مع حالات وفيات فيروس إيبولا، وكانت كلُّ التوصيات العالمية شديدة الصرامة والحذر في التعامل مع تلك الحالات، خاصَّة فيما يتعلق بأخذ العينات وطريقة التعامل معها، بالإضافة لذلك فإن الملابس ومعدات الوقاية الشخصية التي يجب على فريق التشريح ارتداؤها ذات مواصفات خاصة جدًّا، وفوق كل هذا فإن جثث المتوفين بسبب فيروس إيبولا ينبغي أن يتم إحراقها، وهو بكل تأكيد ما سوف يتعارض مع الشريعة الإسلامية ويثير حفيظة أهل المتوفى، ولكن كان هذا آخرَ ما يقلقني.. كلّ ما كان يقلقني هو أن أصبحَ وفني التشريح المرافق لي في موضع هذا المتوفى لا قدّر الله!

مرَّت ساعة قبل أن أتلقى اتصالًا من كبير الأطباء الشرعيين يخبرني بأنَّ هناك سيارة خاصَّة سوف تصحبني رفقة فني التشريح إلى تلك المستشفى المنعزلة، وقام بطمأنتي أنَّ كافة معدات الوقاية الشخصية قد تم توفيرُها، وأن تجهيزات أخذ العينات من المتوفى متاحة، وشدَّد كذلك على أن يكون الإجراء محدودًا قدر المستطاع بهدف أخذ العينات، وكذلك أخبرني أنه بإمكاني عملُ أشعة على كامل الجثمان، وأضاف



أنني وفني التشريح سوف يتمُّ إقامتنا في سكن خاص بذات المستشفى لمدة 48 ساعة لحين التأكد من نتيجة العينات، وحفاظًا على الصحة العامة!

وعلى الرغم من خوفي الشديد من هذه المهمَّة الانتحارية إلا إنَّ ذلك التجاوب الكبير والاهتمام بالتفاصيل من كبير الأطباء الشرعيين وتوفير الإمكانيات؛ جعل من المهمة تحديًّا مثيرًا لاهتمامي، وجعلني أشعر أن الموضوع ليس مجرد مأمورية تشريح ستمر مَرَّ الكرام!

بالطبع أخبرتُ زوجتي عن موضوع المأمورية وأنني سأتغيب على الأقلِّ لمدة 48 ساعة لاحترازات صحية فما كان منها إلا أن قالت لي: لا حول ولا قوة إلا بالله.. أهو ده اللي بناخده من الشغل.. قلق وبهدلة.. كان ما له تخصص طب الطوارئ.. عمومًا خدْ معاك طقم هدوم احتياطي علشان متدخلش علينا باللي كنت لابسه وانتَ في المأمورية.. وابقى اتصل بيا طمني كلّ شوية.

وما هي إلا دقائقُ حتى جاءتِ السيارة التي ستقلني إلى المستشفى، وكان بداخلها السائق وفني التشريح (عم سبع) وشخص آخر عرّفَ نفسه أنه (خبير مختبرات طبية ومكافحة عدوى) بأحد الجهات السيادية ستكون مهمته أخذَ العينات والتأكد من التخلُّص الآمن من أيِّ معدات مستخدمة في المأمورية.



وما إن رآني (عم سبع) حتى قالَ لي بضيق ممزوج بمزاح: منوَّر يا باشا أقسم بالله.. أنتَ كل مأمورياتك كده ما يعلم بيها إلا ربنا.

ضحكتُ بصوت عال، وقلت له: بصّ يا عم سبع.. هي أقدام وحظوظ.. ولو خايف على نفسك اعمل معاش مبكر واشتري نفسك.

ضحكَ عم (سبع) وقال: لا يا باشا معاش مبكر إيه.. ده كده الفلوس تقلّ، وإحنا غلابة ورانا أقساط وجمعيات وبنات عاوزين نجوزهم.. أنا هصبر عليك وأمري لله.

ضحكَ كلٌّ مَن في السيارة وقال السائق مازحًا: ربنا يقوّي إيمانك يا عم سبع ويسترها عليكم يا دكتور والله.

رددتُ مبتسمًا وقلت: والله كلٌّ ميسَّر لما خُلق له.. وإحنا بنعمل شغلنا بما يرضي الله.. علشان كده ربنا بيسترها معانا ومعاكم.

استغرق الطريقُ حوالي ساعتين تقريبًا، تبادلنا فيها أنا والمرافقون الحديثَ حول مواضيع مختلفة.. فن ورياضة وسياسة ودين. كانت مثلُ هذه الرحلات والرفقة هي ما يهوّن عليّ ما أراه من مشاقّ في العمل ومآسي في القضايا التي أباشرها.. كانت هذه الحواراتُ مع الآخرين من الأماكن المختلفة تشعرني بالدفء وتجعلني أشعر أنني مازلت أنتمي لعالم الأحياء.



وعندَ وصولنا للمستشفى لاحظنا وجودَ تعزيزات أمنية حول المستشفى، وتمَّ السماحُ لسيارتنا بالدخول لأقرب نقطة من ثلاجة الموتى؛ حيث تمَّ وضعُ الجثمان، وقمْنا بالنزول من السيارة، وقام أحدُ الأشخاص بتسليمنا معدات الوقاية الشخصية، وإعطائنا تعليمات استخدامها، وكيفية التخلص منها عقب انتهاء فحص الجثمان وكيفية أخذ العينات وتسليمها.

قمْنا على الفور بارتداءِ ملابس الوقاية الشخصية، وبمجرَّد دخولنا من الباب الخارجي لثلاجة الموتى، وجدنا عدة أفلام أشعة عادية موضوعة على طاولةٍ ومكتوبٌ عليها اسم المتوفى، فقمتُ بفحصها وتبيَّنت أنها خالية من أية معالم مشتبهة مثل الكسور أو المعالم المرضية أو الأجسام الغريبة، وكان هذا يعطي انطباعًا بصورة كبيرة أنَّ الوفاة لم تنتج من إصابة.

وبمجرَّد دخولنا لثلاجة الموتى تبينّا وجودَ جثمان المتوفى موضوعًا على طاولة تشريح معدنية متنقلة، وبجوارها طاولة صغيرة عليها معدّات التشريح، وطاولة أخرى عليها معدات أخذ العينات من المتوفى.

وبسرعةٍ ودونَ تضييع أيِّ وقت قمتُ بكشف الجثمان، وكانت هناك علامات واضحة أنَّ الوفاة كانت نتيجة صدمة نزفية ناتجة عنْ نزيف من الفم والأنف، فقد كان هناك سوائل مدمَّمة من الفم والأنف، وكان الرسوب



الرِّمي بخلفية الجثة بلوْن باهت، وكان هناك طفحُ جلدي بعموم الجثمان، ونزيفٌ تحت الجلد، وهو أحدُ أهمِّ علامات العدوى بفيروس إيبولا.

قمتُ- عقب ذلك- بعمل شقٍّ جراحي صغير بالصدر والبطن، حيث قمت بفحص الأعضاء الداخلية وتبيَّنت أنها محتقنة بشدة، وبها نقط نزفيَّة على سطحها، معَ وجود التهاب رئوي واضح، وكذلك كان هناك نزيفٌ داخلي غير متجلِّط، مما يعني أن عواملَ التجلط والصفائح الدموية كانت منخفضة بشدة.

وفي الحقيقة، لم أحاول فتحَ رأس المتوفى لفحص المخ، وكان كلُّ همّي تنفيذ التعليمات بأن يكون التشريح محدودًا وسريعًا لتقليل فرصة انتقال العدوى لي ولفنّي التشريح المرافق، وبالفعل أخذت عينات دماء ووضعتها بالأنابيب وأطباق الفحص البيولوجي المخصصة، وكذلك أخذتُ عينات من الأحشاء لفحص السموم، وقام فني التشريح بإغلاق جرح التشريح بسرعة ومهارة.

عقبَ ذلك قمنا بإعادة وضع الجثمان داخلَ كيس حفظ الموتى المخصص للحالات شديدة العدوى، وقمنا بإدخالها بالدرج الخاص بها بثلاجة الموتى، وقمنا بالخروج إلى غرفة مجاورة حيث قام فريق التطهير بتطهيرنا، ثم قمنا بالتخلص من معدات الوقاية الشخصية، وارتداء زيٍّ طبيٍّ آخر، والتوجه إلى غُرف



العزل المخطط أن نظل بها لمدة 48 ساعة لحين ظهور نتائج فحص العينات.

في الحقيقة أنّني كنت قلقًا بشدة من نتائج فحص العينات، ففي حالة إيجابية العينات لفيروس إيبولا؛ فسوف تطول فترة الحجر الصِّحي لأكثر من 48 ساعة، وهذا أيضًا سيعني التعرضَ للعديد من الفحوصات الطبية لي ولفني التشريح، وفي الحقيقة أنني وعلى الرغم من كوني طبيبًا شرعيًّا إلا أنّي كنت أكره الحقن وأيَّ فحوصات طبية مؤلمة.

مرَّت الليلةُ الأولى طويلة عليَّ وعلى عمّ (سبع)، وكانتْ مفعمة بالقلق والتوتر، ولم يخففْ من حدة ذلك سوى الحوارات الطريفة مع عم (سبع) وإصراره أنَّ المشكلة ليست في تخصص الطب الشرعي، ولكن المشكلة في أنا كدكتور مصطفى؛ حيث إنَّني- وعلى حدِّ وصف عم (سبع)- عبارة عن (مغناطيس للحالات المتعِبة، واللي بيجي من وراها قلق ووجع دماغ)، والحقيقة أنني كنت أتَّفق تمامًا مع عمّ (سبع) أنَّ حظي فعلًا سيّئ في وقوع الحالات الشائكة والمحيرة في طريقي!

في ظهيرة اليوم التالي، جاءنا اتصال بسلبية العينات لفيروس إيبولا، مما يعني- بفضل الله- أنَّ سبب وفاة من قمنا بتشريح جثمانه لم يكنْ عدوى فيروس إيبولا،



وهذا في حدٍّ ذاته كان خبرًا جيدًا، وبالتالي كل ما كان ينقصنا هو ظهور نتيجة العينات التي أخذناها للبحث عن السموم.

عدتُّ أنا وفني التشريح عم (سبع) إلى الإدارة، وقمت بإبلاغ كبير الأطباء الشرعيين بنتيجة الفحص التشريحي ونتيجة فحص فيروس إيبولا، وأخبرني بالتكتم على أية نتائج تصلني، واستشارته أولًا بأول في تفاصيل القضية.

مرَّ يومان عقب ذلك، وجاءتني نتيجة تحليل العينات للكشف عن السموم، وتبين سلبية العينات لكل السموم المعتادة، وهو ما يعني أيضًا أنَّ المتوفى لم يتعرضْ للتسمم كما ادَّعت أخت المتوفى بقيام زوجة المتوفى بتسميمه لوجود خلافات زوجية بينهما،

وكوْن النتائج سلبية سواء لفيروس إيبولا أو للسموم المعتادة يجعل القضية أكثرَ صعوبة؛ حيث إنه بقيامي بتشريح محدود كما اقتضتِ التعليمات وعدم أخْذ عينات للفحص الباثولوجي لتحديد الأمراض التي ربما كان المتوفى يعاني منها وعدم وجود إصابات بالجثمان؛ يجعل معرفةَ سبب الوفاة شديد الصعوبة.

على الفور، قمتُ بالاتصال بكبير الأطباء الشرعيين وإخباره بالمستجدات، وكان رأيه هو التأني في كتابة التقرير وعدمَ الاستعجال في إرساله للنيابة قبلَ انتهاء التحقيقات، وفي أحسن الأحوال فقط إخبار النيابة بنتائج



التحاليل.

كان أكثرُ ما يقلقني في هذه القضية هو الانتظارَ دون فائدة، فمن الواضح أنَّ جهات التحقيق كان تعتمد علي بصورة أساسية في معرفة سبب الوفاة، وبعدَ ظهور سلبية كافة التحاليل أصبحت أنا مَن أعتمد على جهات التحقيق في إعطائي أي خيط ربما يقودني لتخمين سبب الوفاة!

ولقطع الشَّك باليقين قمتُ بالاتصال بوكيل النيابة المسئول عن القضية، وسألته عن تفاصيل القضية، فأخبرني أن المتوفى كان على خلافاتٍ زوجية مع زوجته، فقامتْ زوجته بترك المنزل، وظلَّ الزوج رفقةَ ابنه البالغ 14 سنة بمفردهما في المنزل منذ حوالي عشرة أيام، وعقبَ مرور ثلاثة أيام من ترك الزوجة للمنزل، تدهورتِ الحالة الصحية للزوج بسرعة، وتمَّ نقلُه للمستشفى ثمَّ توفى، ونظرًا لكون الواقعة حدثت في قرية صغيرة فقدِ انتشرت الشائعات عن قيام الزوجة بتسميم زوجها، ونظرًا أيضًا لكون الزوج قد عادَ من دولة إفريقية موبوءة بفيروس إيبولا فقد اشتبهت الجهات الصحية بعدوى إيبولا، وعقب إخباري للسلطات بسلبية الفحوصات لفيروس إيبولا وللسموم المعتادة، فقد تم إخلاءُ سبيل الزوجة ولكن لم يتم تسليمُ الجثمان إلى ذوي المتوفى لدفنه، وذلك بناءً على طلبي، لربما احتجت إجراء بحثٍ



آخر على جثمان المتوفى في وقت لاحق.

لم يكنْ هناك شيء فيما قاله وكيلُ النيابة قد يفيدني في معرفة سبب الوفاة، وعليه فقد قررتُ الانتظار لفترة حتى تتضحَ الصورة، ويبدو أنَّ انتظاري لم يكنْ ليدوم طويلًا. ففي صباح اليوم التالي مباشرة جاءني اتصالٌ من وكيل النيابة المسئول عن القضية يخبرني بوفاة ابن المتوفى بنفس الصورة والأعراض التي توفي بها والده، وأخبرني أنه أصدر قرارًا بإجراء الصفة التَّشريحية على جثمان الابن لمعرفة سبب الوفاة، وكان هذا تطورًا خطيرًا في القضية!

وللأمانة، لو سألني أحدُهم منذ عدةِ سنوات عن رأيي في وفاةِ شخصين من نفس العائلة في غضون أسبوع بنفس الأعراض؛ لقلتُ (عوامل وراثية أو قضاء وقدر)، ولكنْ بعد 15 عامًا من العمل كطبيب شرعي لم أعدْ أؤمن كثيرًا بالمصادفات الحزينة.. وأصبحت أؤمنُ أنَّ لكل شيء تفسيرًا، وهذه المرَّة كان يجب أن أجد تفسيرًا لهذا الغموض.

كان تشريحُ جثمان الابنِ أكثرَ أهمية من تشريح جثمان الأب، حيث إنَّ معرفة سبب وفاة الابن سيكون هو مفتاح حلِّ القضية، وعليه فقد قرَّرت أن يكون تشريحُ الجثمان نموذجيًّا وكاملًا، وأن أقوم بأخذ كافَّة العينات اللازمة، والأهم أن يكون التعاملُ غيرَ تقليدي مع هذه القضية.



ولتحضير كلِّ شيء أخبرت وكيلَ النيابة المسئول عن القضية أن يكون مكانُ تشريح جثمان الابن هو ذاته مكان تشريح الأب بنفْس الإمكانيات والاحتياطات، وكانت هذه مفاجأةً لوكيل النيابة، ولكني كنت أشعر أنَّ هذه القضية لن تنتهي ببساطة.

في اليوم التالي، اصطحبتُ فني التشريح عمّ (سبع)، ونفسَ الفريق التابع للجهات السيادية، وذلك بعد وساطة من كبير الأطباء الشرعيين، وذلك لحاجتنا الشديدة بسرعة ودقَّة النتائج في هذه الحالة.

وفورَ وصولي للمشرحة قمتُ أنا وفني التشريح بارتداء معدّات الوقاية الشخصية، وقمْنا بالبدء بتشريح الجثمان بصورة كاملة، وفي البداية تبينّا- بالكشف الظاهري- وجودَ بهاتة في الجلد مما يدلُّ على أنَّ الطفل المتوفى نزفَ خارجيًا وداخليًا، كما اتضح وجودُ طفح جلدي ونزيفٍ تحت الجلد، ونزيف في مُلتحمة العينين ومن الأنف، ولكنْ هذه المرَّة كان هناك شيء إضافي.. لقد كان هناك تساقطٌ للشعر أيضًا!

كانتِ العلامات السابقة تشير إلى عدوى بإحدى فيروسات الحمى النزفية، أو أحد أمراض الدم الحادة مثل سرطان الدم الحاد (اللوكيميا)، ولكن تساقط الشَّعر كان أمرًا غريبًا وغيرَ مفهوم، وكان أخذُ عينات من الجثمان أمرًا لا مفرَّ منه.



عقبَ ذلك قمتُ بعمل تشريح كامل، وفحصِ كافة الأحشاء، وكانت كلها متضخمةً ومحتقنه بشدة، وكان هناك نزيفٌ داخلي أيضًا بدرجة بسيطة، وكان هناك نزيفٌ في المعدة والأمعاء، معَ وجود التهاب رئوي، وللتأكد من كل العلامات المرضية بالتحديد قمتُ بأخذ عينات من كلِّ الأحشاء، بالإضافة إلى الطحال، وقمتُ لأولِ مرَّة بأخذ عينةٍ من نخاع العظام لمحاولة معرفة سببِ النزيف الموجود بالجثة، وبالطبع أخذت عينات للبحث عن كافة الفيروسات المسببة للحمى النزفية من باب الاحتياط.

وعقبَ الانتهاء من تشريح الجثمان، طالبتُ بالإبقاء على جثمان الابن وعدمِ دفنه تحسبًا لأيٍّ مستجدات تستلزم مزيدًا من الفحوصات، وقمتُ بإرسال العينات الخاصَّة بالفيروسات لمختبرات الجهة السيادية، وطلبتُ منهم الإسراع في إجراء التحاليل حتى يمكنني تحديدُ باقي الخطوات التي سوف أقوم بها.

في اليوم التالي، وصلتني نتائجُ تحاليل الفيروسات، وأثبتت سلبيتَها بفضل الله لأيٍّ عدوى فيروسية للحمى النازفة، وهو ما يعني أنَّ كشفَ لغز ما أصابَ الأب وابنه يكمنُ في التحليل الباثولوجي للعينات المأخوذة من الابن، وعقب تيقني من عدم وجودِ عدوى فيروسية بالعينات قمتُ بإرسالها إلى المعامل الطبية بمصلحة الطب الشرعي لبيان ما بها من معالم مرضية، وكذلك



قمتُ بإرسال بعض العينات لفحص السموم.

كانتِ الأيام تمرُّ ببطء، وكنت في أشدِّ القلق من أنْ يُسفر فحصُ العينات عن نتائج سلبية لا تفيدني في حل ألغاز القضية، وجاءتْ أولُ ضربة عقبَ وصول نتائج فحصِ السموم الذي أثبت عدمَ وجود سموم بالعينات، وبالتالي لا يوجد مفرٌّ من انتظار نتيجة الفحص الباثولوجي للعينات.

بعدَ حوالي أسبوعين تلقيتُ اتصالًا من دكتور (حازم محمود) الطبيب الشرعي المعملي بمعامل مصلحة الطب الشرعي، وفور ردِّي عليه أخبرني بالتالي: دكتور مصطفى.. هوّ المتوفى اللي حضرتك بعتُّه لينا كان بياخد علاج إشعاعي؟

رددتُّ باستغراب وقلت: لا خالص.. حسب معلوماتي إنه كان سليم معافى.

قال لي: غريبة جدًّا، أولًا نُخاع العظام كلّ الخلايا النخاعية اللّي فيه تقريبًا ميتة، ومفيش إلّا نسيج دهني، وده معناه تعرضه لإشعاع شديد.. غير كده.. خلايا باقي الأنسجة- وخاصّة الطحال- فيها انتفاخ، وبعضها متحلِّل، وفي خلايا التهابية حادة، وحتّى خلايا القولون فيها التهابات شديدة وتقرُّح في الغشاء المخاطي، ودي علامات مش بنشوفها إلّا في مرضى السرطان بعد ما بياخدوا علاج إشعاعي، وبيتاخد منهم عيّنات علشان

نشوف تأثير الإشعاع على الخلايا السرطانية.

قلتُ بقلق واضح: قصدك إنّ المتوفى مات من الإشعاع؟

قال بجديَّة: مات من مضاعفات الإشعاع.. مات من فشل في خلايا نخاع العظام اللي أدَّى إلى انخفاض الصفائح الدموية وكرات الدم البيضاء، وده يعمل نزيف حادّ، وعدوى شديدة زيّ الالتهاب الرئوي، ومنظر باقي الأحشاء بيقول إنه ممكن كان عنده إسهال شديد ونزيف.

قلت له: فعلًا ده اللي حصل.. ودَه مش معناه إلا حاجة واحدة بس؛ إنّ الأب وابنه ماتوا نتيجة تعرُّض لإشعاع حاد.. بس إيه مصدر الإشعاع ده يا ترى؟

قال دكتور حازم: الله أعلم.. بسّ عمومًا التقرير هيوصلك النهارده.

أنهيتُ المكالمة مع دكتور (حازم) وتحوَّل قلقي من القضية نفسها إلى قلقٍ من نوع آخر؛ لقد كان ما ظهر للتَّو يعني أن هناك مصدرَ إشعاع قاتل تسبَّب في وفاة الأب وابنه، وهذا المصدر مجهولُ النوع والمكان، وكان عليَّ إخبار السلطات على الفور دونَ تأخر، وبالفعل قمتُ بالاتصال بوكيل النيابة، وأخبرته عمّا توصلت إليه، وكان الخيط الوحيد الذي سيقودنا لحل القضية هي الزوجة؛



حيث إنَّها الوحيدة المتبقِّية من الأسرة على قيد الحياة، وربما تعرف شيئًا قد يفيدنا.

في نفس اليوم، تمَّ استدعاء الزوجة، وقام وكيل النيابة- أيضًا بصورةٍ ودية- بطلبي للتواجُد أثناء التحقيق مع الزوجة، وقد وافقتُ على الفور لإني كنت على يقين أن الزوجة تخفي شيئًا ما!

فورَ وصولي لمكتب وكيل النيابة، قام وكيل بمصافحتي والترحيب بي بحرارة، وفوجئت به يشير إليَّ ثمَّ يقول لسيدة تجلس أمامه: أهو يا مدام السيد الطبيب الشرعي، وتقريره بيقول إنك سممتِ جوزك وابنك!

نظرتُ لوكيل النيابة باندهاش، فنظرَ لي نظرة ذات مغزى، فقرَّرت الصمتَ وترقبَ ردِّ فعل السيدة، التي نظرت إليَّ بفزع وقالت: أقسمُ بالله ما حصل يا باشا.. حدّ يسمِّم ضناه!؟

نظرَ لها وكيل النيابة بحدَّة وقال: والله أنتِ كان قصدك تسمّمي جوزك.. بسّ ابنك أكل معاه والاتنين ماتوا.

قالت في توسُّل: أقسم بالله ما حطيت سمّ لحدّ ولا أيّ حاجة.. ده أنا حتى سايبة لهم البيت غضبانة ومطبختش ومكانش في أكل في التلاجة.. يبقى هسممهم إزاي!؟

قال وكيل النيابة في إصرار: أنتِ اللّي تقولي لنا إزاي.. إحنا لقينا السِّم في جسمهم وفاضل اعترافك..



بلاش تتعبينا علشان كل الأدلة ضدَّك.

قالت السيدة في تضرُّع: والله ما في سمّ ولا حاجة.. أنا كلّ اللّي عملته إنّي عملت عَمل لجوزي علشان أنتقم منّه ومن معاملته الظالمة ليّا ولابني!

انفرجتْ أسارير وكيل النيابة بعدما بدأتِ السيدة في الاعتراف وقال بهدوء: أيواااا.. قوليلنا بقى إيه العمل ده.. شكله إيه واتحطّ فين.. وإمتى؟

قالتِ السيدة في استسلامٍ تام: جوزي كان على طول بيضربني، ومعاملته ليّا ولابني وحْشة.. بخيل علينا في كلّ حاجة.. وأنا غُلبت أكلّم أهله يصلحوا بينّا أو ينصحوه.. ومفيش فايدة. لغاية ما فاض بيّا.. وآخر حاجة جنّنتني إنه كان ناوي يبيع ورثه من أبوه ويتجوّز عليّا علشان يربّيني، وقال إيه علشان يخلّف تاني علشان أنا مبخلّفش من بعد خلفة ابني!

قال وكيلُ النيابة بفضول: تمام بقى.. قمتِ قرَّرتِ تقتليه!

قالت بفزع: أقسم بالله ما كنت أقصد.. الشيخ اللّي عمل لي العمل قالي إنه هيخلّيه مهدود وعيّان بسّ شوية.. إنما مقالش إنه هيقتله.

ردّ وكيل النيابة في صرامة: إيه العمل ده؟!



قالت السيدة في خوف: العمل ده علبة صغيرة حديد كده.. قالّي تاخديها وتفتحيها تحت السرير اللّي بينام عليه جوزك لمدة أسبوع، وأوّل ما يتعب ويروح المستشفى.. تروحي تقفليها وتجيبيها ليا تاني.

قال وكيلُ النيابة بنبرةٍ يغلب عليها زهْو الانتصار: والعلبة دي فين دلوقت؟

قالت السيدة: العلبة لسّه تحت السرير.. لما جوزي تِعب وحصَل قلق، وإخواته اتّهموني فيه.. خُفت أروح البيت اجيبها أحسن حدّ يشوفني ويبهدلني.

قال وكيلُ النيابة بحدَّة: طب وابنك إيه اللّي حصل له؟ مش العمل ده معمول لجوزك بس؟

قالتِ السيدة وقدِ انهارت في البكاء فورَ ذكر ابنها المتوفى: معرفش ده حصل إزاي! بسّ ابني لما تعِب ورُحت له المستشفى وسألته إيه اللي حصل.. قالي كان بينام على سرير أبوه لما سِبت لهم البيت.

نظرَ لي وكيل النيابة نظرةً ذات مغزى مرةً أخرى، وعرفت أنه يريد تدخُّلي في الحوار، فقلت للسيدة وأنا أتظاهر بالتعاطف معَها: معلش يا مدام، هدِّي نفسِك.. لو شفتِ صورة للعمل ده هتعرفيه إذا كان زيُّه واللّا لأ؟

قالت بانكسار: أيوه.. هعرفه.



فقمتُ على الفور بالبحث عن مجموعة صور على الإنترنت على جوّالي، وقمت بعرضها على السيدة، فقامت بالإشارة إلى أحدِ الصور وقالت في فزع: أيوه زيّ دي كده.. علبة حديد وجوّاها حاجة حديد!

ظهرَ الفزع على وجهي على الفور، وقلتُ لوكيل النيابة بصوت عالٍ: دي مصيبة يا سيادة المستشار.. كارثة بكل المقاييس.

فوجئ وكيل النيابة بردٍّ فعلي وقال في قلق: في إيه يا دكتور؟

قلت له: العمل اللّي الست دي بتقول عليه عبارة عن حاوية رصاص جواها مادَّة مُشعة شديدة الخطورة وعالية الإشعاع.. الجثتين اللي أنا شرَّحتهم ماتوا من إشعاع نووي خطير وحاد، وبيت الضحايا فيه مادة مشعَّة بتهدِّد الآلاف بالموت!

ظهرَ الفزع على وجْه وكيل النيابة وقال: يا نهار أسود.. دي مصيبة!

وقام وكيلُ النيابة على الفور بإجراء مكالمة بعدَّة جهات سيادية، قبلَ أن يقول لي: في فرقة من الحرب الكيماوية بالقوات المسلحة وهيئة الطاقة الذرية المصرية رايحين بيت الضحايا دلوقت، وصدر قرار بالتحفظ علينا!



قلتُ في استغراب: التحفظ علينا فين وليه؟!

قال بقلق: أنا وحضرتك والمتَّهمة وأيِّ حدّ خالط الجثتين أو عاين مسرح الجريمة.. هنفضل هنا في النيابة لغاية ما يبعتوا حدّ متخصِّص يقيس نسبة الإشعاع فينا، ويسحب لنا تحاليل دم.. أنت دكتور وعارف بقى!

قلت بتوتر: المشكلة إني عارف.. ربنا يستر.. وأكيد هناخد أقراص يود؛ علشان أيّ مصدر إشعاعي ميكونش ليه أثّر علينا قدر المستطاع، وبالمرة يا ريت حضرتك برضه تبلَّغ السلطات إنّ الجثتين لسَّه في مشرحة مستشفى العزل علشان مش هينفع يتدفنوا بالطريقة العادية ولا في المقابر العادية.

هنا، صرختِ الزوجة المتهمة وقالت: منّه لله.. منّه لله اللي إدّاني العَمل.. دمَّرني وقتل ابني وبهدل حياتي.

نظرَ إليها وكيل النيابة وقال في صرامة: أيواااا.. ده بقى عاوز اسمُه وعنوانه وكلّ حاجة عنه بالتفصيل!

قالتِ الزوجة في انهيار: حاضر يا بيه.. حاضر.

مرَّت عدةُ ساعات حتى أتت فرقةٌ متخصِّصة، وقامت بفحْصي أنا والزوجة المتهمة ووكيل النيابة وقامت بسحب التحاليل المطلوبة، وبفضل الله تأكدَ عدمُ وجود آثار للإشعاع علينا، وقمتُ بإخبار السيد وكيل النيابة بأنني سأنتظر نتائج التحقيقات وفحْص الجهات المختصة



لمنزل الضحيتين والعلبة التي فيها المادة المشعة حتى أقوم بكتابة التقرير بمعلومات كاملة.

غادرتُ النيابة وعدتُّ إلى منزلي وأنا في أقصى درجات الإنهاك الجسدي والنفسي، إلا إنَّ هذا لم يمنعني من الاستيقاظ مبكرًا في صباح اليوم التالي والاتصال بوكيل النيابة لسؤاله عن الشخص الذي قام بإعطاء الجسم المشع للزوجة المتهمة، فأخبرني وكيلُ النيابة أنه عبارة عن شخص دجّال يدَّعي القيامَ بأعمال سحرية وغيره، وقد حصل على الجسم المشع من شخص يقوم بالتخلُّص من النفايات الطبية ومستهلكات المستشفيات، والذي أخبره بتأثير ذلك الجسم المشعّ على مَن يقترب منه، وقد استغلَّ الدجال جهلَ عامة الناس بذلك لإيهامهم أنَّ هذا عمل سحري، وجاري البحثُ عن الدجال نظرًا لهروبه فور علمه بالقبض على الزوجة ووفاة الضحيتين.

وعلى الرغم من تعرُّضي للكثير من المخاطر والضغط النفسي في هذه القضية، لكن عزائي الوحيد أنني قد قمت بواجبي واستطعتُ الوصولَ لسبب وفاة الضحيتين اللذيْن كان على وجهيهما شيء ما أخبرني أنه لا ينبغي أن تنتهي هذه القضية بجملة (الوفاة نتيجة حالة مرضية مجهولة) مهما كان الثمن!



مأساة



التاريخ هوَ 30 يناير من عام 2011م، يومان منذُ جمعة الغضب، وكلُّ شيء في مصرَ مضطربٌ وغير واضح، والشوارع يملؤها الخوفُ والترقب وبصيص من الأمل.

تأتيني مكالمةٌ في الصباح الباكر من رئيسي في العمل.. (معلش يا دكتور مصطفى، في أب وابنه توفاهم الله بالرصاص بواسطة مَجهولين، والنيابة عاوزه الطبّ الشرعي يفحصهم علشان الأهالي متجمّعين وعاوزين يدفنوا المتوفين).

الضحايا كانوا في محافظة غيرِ خاضعة لمكان عملي، والمفترض أنَّ زميلًا آخر يقوم بهذا العمل، ولظروف ما.. لا يوجد مَن يقوم بهذه المهمة غيري. ودّعت أبي وأمي وزوجتي وأطفالي بكلمات مُقتضبة.. فقد كان الخروجُ للشوارع في هذه الفترة غير مأمون العواقب، وحرفيًّا

(اللي نازل من بيته مش ضامن يرجع)، ولكني في نهاية الأمر طبيبٌ شرعي من واجبي الحفاظ على حقوق الضحايا مهما كانت الظروف والتضحيات.

توجَّهت أنا وفني التشريح وسائقُ الإسعاف الخاص بالطبِّ الشرعي إلى المحافظة التي لم نسافر إليها من قبل، وطيلة الطريق كانتِ اللجان الشعبية تقوم بإيقافنا وتفتيشنا بدقة.. فقد كانتْ لسيارات الإسعاف الحكومية سمعة سيئة في هذا التوقيت نظرًا لما شاعَ بين الناس من حملها لأشخاص وأدوات تستخدم ضد المتظاهرين.

ضللنا الطريقَ أكثرَ من مرة حتى وصلنا بعد 4 ساعات كاملة إلى المستشفى حيث توجد جثامين الضحايا، وما إن دخلت المستشفى حتى رأيت حشدًا غاضبًا من الناس أمام المشرحة.

قمتُ بتعريف نفسي للمتواجدين، وقدَّمت لهم العزاء، وطلبتُ منهم التحدثَ مع أيِّ شخص لديه تصريح النيابة بتشريح الجثامين، فأشار أحدُهم إلى أمين شرطة يجلس في زاوية بعيدة من المكان وقاموا بمناداته للتحدث معي.

قمتُ بأخذ إذنِ التشريح من أمين الشرطة، ولكنْ في نفس اللحظة تعالت أصواتٌ غاضبة بين الحاضرين تهاجم أمين الشرطة (منكم لله أنتوا اللي سبتوا شغلكم وسبتونا لكلاب السكك.. ظهرتوا بعد مالدنيا خربت..



ربنا ينتقم منكم يا ظلمة)!

نظرَ لي أمين الشرطة نظرةً مليئة بالحزن والانكسار وقلةِ الحيلة.. فما كان منّي إلا أن قلت بصوتٍ مرتفع (البقاء والدوام لله يا جماعة، وربنا يرحم اللي ماتوا.. بسّ الراجل ده واقف معانا أهو وبيعمل شغله ومش قاعد في بيتهم، احترام الراجل ده من احترامي، وكرامته من كرامتي، وأيّ تجاوز ضدّه هيخلّيني أعتذر عن المأمورية وأبلغ النيابة بانتداب طبيب شرعي تاني.. أنا جاي من سفر 4 ساعات علشان أجيب حقّ اللي ماتوا.. يا تساعدونا وتحترمونا يا إما مش هنشتغل)!

كان التغيرُ المفاجئ من قمة التعاطف معَ أسْرة المتوفين إلى قمة الحزم والجدية في التعامل معهم؛ قد جعلهم يلتزمون الصمتَ، ويلتزمون بتنفيذ طلباتي طيلة المأمورية.

قمتُ بإجراء أشعَّة على جثماني الضحيتين لمعرفة أماكن استقرار المقذوفات النارية داخل الجسم، وبعدها قمت بتشريح كل جثمانٍ على حدة، واستخراج المقذوفات النارية، وللأسف كانت الطلقات النارية قد اخترقت كل أنحاء جسمي المتوفيين بما فيها الرأس والصدر.

انتهيتُ من تشريح الجثمانين وعدتُّ أنا ومرافقي إلى بيوتنا بعدَ منتصف الليل بعد رحلة شاقة مليئة بالتفتيش بو اسطة اللجان الشعبية والقوات المسلحة.



بعدَ استتباب الأمور، ومرور حوالي شهر من الحادث، قمتُ بإصدار التقرير الطبي الشرعي الخاص بتشريح جثماني الضَّحيتين واعتقدتُ أنَّ علاقتي بالقضية قد انتهت.. إلا أنني كنت مخطئًا.

بعدَ شهرين من الحادث وجدتُ مَن يطرق باب مكتبي، ووجدتُ أنه ابنُ الضحية المتوفى وشقيق الضحية الآخر، وبنبرة حزينةٍ قال (آسف على إزعاجك يا دكتور، أبويا وأخويا ماتوا ودلوقت عاوزين نقسِّم الميراث على الورثة واللي من ضمنهم ولاد أخويا الأيتام، وكنت عاوز أعرف مين اللي مات الأول في الحادثة.. أبويا واللّا أخويا علشان نعرف مين اللي هيورث التاني فيهم، ونقسم التركة حَسب شرع الله، إحنا استعوضنا ربنا في اللي راحوا، بسّ قدام ربنا لازم نراعي ربنا في حقّ الورثة وولاد اخويا اليتامي).. ثمَّ انهار باكيًا !

للأسف الشديد في الطبِّ الشرعي قد تكون القضية بسيطة وسهلة من حيث الجانب العملي.. سبب وزمن الوفاة واضحين، ولكنْ الجزءُ الصعب هو الجزء الإنساني والأخلاقي المرتبط بالقضية.

في حزن شديدٍ قلت للرجل (اعذرني يا أستاذي والله، أبوك وأخوك الله يرحمهم كانت إصاباتهم كلها في الرأس والصدر، ودي إصابات قاتلة بصورة فورية، ومستحيل حدّ فيهم كان يعيش مدة أطول من التاني، ومن وجهة



النظر الطبية الشرعية مستحيل الجزْم بمين مات قبل مين.. اعذرني كان نفسي أساعدَك.. بسّ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وفوق كل ذي علم عليم)!

انصرفَ الرجل والألم يعتصره.. وتركني أيضًا والألم يعتصرني على كلٍّ شيء.. على مأساة أسرة بأكملها ومعاناة أطفال أيتام، وعلى قلَّة حيلتي في تخفيف آلام هذه الأسرة المكلومة !

بالبحث عن حُكم الشرع في هذه الوضعية، تبيَّنت الفتوى التالية (لا يرث كلٌّ من الرجل المذكور وابنه بعضهما من بعض، وإنما تقسَّم تركة كلٌّ واحد منهما على ورثته الآخرين غير مَن مات معه؛ إذ لا توارث بين مَن ماتوا في حادث واحد ولا يُعلم أيهم مات أولًا عندَ جمهور الفقهاء، وهذا ما عليه القانون المصري).



القضيةُ السّادسة

(بلا أثر)



الثالثة عصرَ أحد تلك الأيام الشاقَّة التي انهمرتْ فيه القضايا على مكتبي في إدارة الطب الشرعي، وكنت لا أكاد أنهي قضيةً حتى تأتيني قضية أخرى.

كان عددُ القضايا ونوعياتُها يعطي انعكاسًا لحال المجتمع، ومقدارِ التدهور الاجتماعي والأخلاقي الذي أصابه، وكانت القضايا تعطي جرسَ إنذار إلى أنَّ هناك غيابًا كاملًا لدور الأسْرة، سواء في التربية أو حتى في محاولة حلِّ المشاكل قبل أن تتفاقم.

حتى داخل الأسرة نفسها كانت الجرائمُ تزداد بشاعةً وضراوة، ولم يعدْ هناك مراعاة لرحم أو نسَب أو عِشرة، حتى أنه لم يعدْ هناك وجود لما يسمَّى بـ (كبير العيلة) الذي يلجأ إليه أفرادُ الأسرة لحلِّ خلافاتهم والحُكم فيما بينهم.

وفي ظلِّ طوفان من الأفكار والخواطر حول القضايا، جاءني اتصالٌ من أحد وكلاء النيابة، وما إن رددتُّ عليه حتى سمعته يقول: دكتور مصطفى بك.. أخبار معاليك ايه؟ مساء الفل.

رددتُّ بترحاب: معالي المستشار مساء الورد.. أنا الحمد لله بخير والله.. طمني عليك.

قال بمرح: الحمد لله بخير.. بسّ عاوزين نشوفك في أسرع وقت لو ينفع.



قلت: تحت أمرك طبعًا.. ممكن يوم الخميس الجاي يكون الشغل خفيف وآجي لحضرتك.

ظهرتِ الجديَّة على صوته وقال: اعْذرني معالي الدكتور، بسّ أنا عاوزك تشرفنا النهارده ضروري لو سمحت.. مش هقدر استنّى للخميس!

استغربتُ بشدَّة طلبه، وسألته: خير يا معالي المستشار قلقتني!

قال بصوتٍ منخفض: معايا تحقيق مُهم عن اشتباه في اختفاء سيدة في ظروف غامضة، ووالدها عندي في المكتب، وانت كطبيب الشرعي الوحيد اللي هيقدر يقنع والدها بنتيجة التحقيقات والتحريات اللي حصلت.

قلتُ بضيق: بسّ النهارده كان يوم مرهق جدًّا عندنا.. لو حتى بكره يبقى أفضل!

قال وكيلُ النيابة بصوتٍ يغلب عليه الرجاء: اعتبرها خدمة شخصية ليّا وشرَّفني النهارده.. لما هتيجي هتعرف قصدي.

لم يكنْ أمامي في هذه اللحظة إلّا الاستجابة لطلبه، وقلت له: ولا يهمَّك معالي المستشار.. ساعة إن شاء الله وتلاقيني عندك في المكتب.

وأنهيتُ الاتصال وأنا أشعرُ بمزيج من القلق والإرهاق،



وكان نادرًا ما يطلب منّي وكيل نيابة مثل هذا الطلب، إلا إنَّه وقد حدث.. فلا بدَّ أنَّ الأمر خطير.

قمتُ بإغلاق كافة الملفّات التي أمامي، واتصلتُ بزوجتي لأخبرها بأنني سأتأخر على الغداء، ودار بيننا الحوار التالي:

أنا: أيوه يا حبي.. أخبارك إيه! معلش هتأخر شوية علشان عندي مشوار مهم للنيابة.

هي: ليه كده بس.. ده الغدا جاهز وانتَ زمانك جعت!

أنا: معلش أمر الله بقى.. اتغدّوا انتوا وأنا لما أرجع هبقى اتغدى.

هي: أنا هحطّ الغدا للعيال علشان راجعين من المدرسة جعانين وعندهم مذاكرة ودروس، بس أنا هستناك نتغدى سوا.

أنا : لا يا حبي هتأخّر كتير وهتجوعي.. اتغدي انتِ بس.

هي: لا أنا هتصرَّف.. ملكش دعوة انت.. شوف حاجة خفيفة تاكلها قبْل ما تروح النيابة وحاول متتأخرش كتير وتيجي بالسلامة إن شاء الله.

قلت لها بامتنان: تسلمي يا حبي.. ربنا يعدّيها على خير.. خلوا بالكم من نفسكم.



ثمَّ أنهيت المكالمة وأنا أشعرُ بعرفان وحبٍّ كبير لزوجتي، فعلى الرَّغم من العبء الكبير عليها نتيجة غيابي الطويل عن المنزل؛ إلا إنها لم تفقدْ حنانها وتقديرَها وشعورها بي، وكانت دائمًا ما تُظهر في كلِّ المواقف أصالةَ و(جدعنة) الزوجة المصرية، وكنت على الجانب الآخر أشعرُ أنني لن أوفيها حقها.

وامتثالًا لتوجيهات زوجتنا المصونة.. قمتُ بأكل باكو بسكوت، دائمًا ما أحتفظ به للطوارئ بمكتبي، وقمت بأداء صلاة العصر، وتوجَّهت إلى النيابة العامة. وفورَ دخولي مكتب السيد وكيل النيابة استقبلني بحفاوة وقال: معالي الطبيب الشرعي المحترم.. نوَّرتنا والله يافندم، وآسفين جدًّا على الاستدعاء العاجل ده!

ابتسمتُ وقلت له: يا باشا ولا يهمك.. شغلنا مفيهوش راحة زيكم بالظبط، والمهم إن شاء الله إني أقدر أفيدكم.

قال لي وكيلُ النيابة: أكيد إن شاء الله هنستفيد منك كالعادة.

ثمَّ أشار إلى شخصين يجلسان في مكتبه أحدهما رجل مُسن مُقعَد على كرسي متحرك والآخر شاب، وقال وكيل النيابة: أعرَّفك يا باشا بالحاج (علي) والد مدام (نهى)، وده ابنه (نادر)، وهما جايّين النهارده عاوزين يفتحوا التحقيق تاني في بلاغ باختفاء مدام (نهى)، على الرغم من إنّ زوج (نهى) تعرَّف على جثة سيدة من حوالي شهر

وقال إنها جثة مراته المتغيبة، وتمَّ دفنها في مدافن عائلة الزوج.

في هذه اللحظة صرخَ الأب المُقعَد بصوت عالٍ، قائلًا أمام وكيل النيابة: أقسم بالله جوزها كدّاب ومخبي حاجة، وبنتي مخرجتش من شقتها.. أقسم بالله هتلاقوها هناك.

ردَّ عليه وكيلُ النيابة بتردد: يا حاج، إحنا لقينا جثتها، وجوزها أتعرف على الجثة واتدفنت خلاص!

بكى الأب وقال: اللي اتدفنت مش بنتي يا باشا.. قلبي بيقولي كده.

نظرَ لي وكيل النيابة نظرةً ذات مغزى، فقلتُ للأب مستفهمًا: طيب إيه اللّي خلّاك متأكد من ده يا حاج؟ وإيه دافع الزوج علشان يقول إنّ مراته ماتت ويتعرَّف على جثة واحدة غريبة ويقول دي جثّة مراته ويدفنها كمان في مقابر عيلته؟!

لم يكنِ الرجلُ المسنُّ قد تمالكَ نفسَه بعد، فقام ابنُه بالحديث وقال: شوف يا دكتور، الموضوع بدأ إنّ أختي وجوزها اتجوزوا من سنة، وبعد كام شَهر من الجواز بدأ يحصُل بينهم خلافات بسيطة، وكنّا كأهل بنروح نصالحهم على بعض ونهدِّي النفوس، وبنقول عرسان جُدد، ولسَّه مخدوش على بعض وكده، المهمّ الموضوع



اتطوَّر وجوزها ضربها مرَّة واتنين، وساعتها غضبتْ عندنا في البيت، وقرَّرنا نربّيه ومرجعتش بيته إلا بعْد ما جالنا البيت واعتذر لها وباسْ إيدها، وعلشان نربطه من لسانه خلّيناه يمضي على شيكات علشان لو زعَّلها واللّا ضرَّبها تاني نحبسه بيها، المهمّ من شهرين لقيناه بيكلِّمنا وبيعيط وبيقول مش لاقي (نهى)، وإنهم اتخانقوا وهي سابتِ البيت ومشيتْ بقالها يومين، قلنا له مبلَّغتناش أول ما مشيِت ليه.. قال كنت فاكرها عندكم، ولما انتوا مكلِّمتونيش قِلقت وكلِّمتكم أشوف إذا كانت جتْ لكم.

ظهرَ الشَّك على وجهي وقلت: فعلًا إنه ينتظر يومين ده كتير جدًّا.

التقطَ الأب خيطَ الحديث وقال: أيوه كتير وغريب، المفتري منّه لله خلّانا نلفّ حوالين نفسنا، ونزلنا عملنا بلاغ وندوَّر في الأقسام والمستشفيات أسبوعين بحالهم، وفي يوم لقيناه بيتَّصل بينا وبيقول البوليس اتَّصل بيه وقاله إنهم لقوا جثة واحدة غرقانة، وعاوزينّا نروح نتعرَّف عليها، ورحْنا أنا وجوزها وابني وشُفنا الجثة، والعياذ بالله.. كانت منفوخة ومتعفنة ومش باين لها ملامح، أنا قلت دي مش بنتي، وهوّ قال لأ دي (نهى) وقال حتَّى الحلَق اللي في ودْن الجثة شبه حلق هو جابهولها هدية قبْل ما تهرب بيومين. أنا من صدمتي دُخت ووقعت، وجالي جلطة في المخ، وبقيت زيّ ما انت شايف وعيالي



اتْلبخوا فيّا، وهو منّه لله استغلّ الهيصة دي وخَد الجثة وعَمل تصريح دفن ودفنها عندهم في مدافن عيلتهم.

قلتُ باستنكار: مِن غير تشريح ولا كشف طبّ شرعي ولا تحليل حامض نووي ولا غيره؟

قال الأب: ولا أيّ حاجة.. إحنا برضه استغربنا، والظاهر ظبّط الناس والتحريات واللّا عمل عَمل إيه.. ياباشا أقسم بالله بنتي ما هيّ اللي اتدفنت.. بنتي بتجيلي في المنام يوماتي وهي بتصرُخ وبتتعذّب وبتقولي إلحقني.. أنا عاوز أعرف بنتي فين وحَصل لها إيه أبوس إيديكم.

ثمّ انهارَ الأب في البكاء مرةً أخرى بصورةٍ كادت تدفعني للبكاء أنا الآخر.

في هذه اللحظة، ظهرَ التأثر الشديدُ على وجه وكيل النيابة قبلَ أن ينهض ليربِّت على كتف الأب المكلوم ويقول في تعاطف واضح: كويس إنَّك قلت كده قدّام سيادة الطبيب الشرعي.. القضية من النهارده الفيصل فيها إنْ شاء الله تحقيقات النيابة العامَّة بمعرفتي شخصيًّا، ومجهودات السيد الطبيب الشرعي (مصطفى) بك.

في هذه اللحظة، نظرَ لي الأب دون أن ينطق.. ولكنْ عيناه أخبرتني أنه صادق، وتعابير حملتْ لوعةَ قلب أب



مكلوم.. وأدركت أنَّني منذ هذه اللحظة أصبحتُ أنا آخر أملًا لهذا الأب لكي يجد ابنته حية أو ميتة!

تمالكتُ نفسي بسرعة، واستعدتُّ شخصية الطبيب الشرعي الذي يفكر بعقله، ولا مجال للعاطفة عنده، وقلت بحزم: أول حاجَة مطلوبة دلوقت إننا نستخرج جثة المتوفاة اللّي الزوج بيدَّعي إنها مراته، وناخد منها عينة حامض نووي ونقارنها بعينة من الحاج ونشوف فعلًا بنته واللّا لأ.. المهمّ انتوا عارفين الجثة مدفونة فين تحديدًا؟

ردَّ الابن وقال: في مدافن عيلة الزوج، بسّ إحنا منعرفش مكانها بالظبط.

قال وكيلُ النيابة: بالمناسبة الزوج برَّه.. تحبّ يدخل نسمع منه يا دكتور (مصطفى)؟

قلت باهتمام شديد: آه يا ريت.

على الفور، قام وكيلُ النيابة باستدعاء الزوج، وعندما دخل تبيَّنت أنه رجلٌ في حوالي منتصف العقد الرابع من العمر، قوي البنية، ومُهندم الملابس، وقامَ وكيل النيابة بتعريفنا له، وقمتُ بمخاطبة الزوج وقلتُ له في هدوء: البقاء والدوام لله يا أستاذ.

ردَّ عليَّ الزوج بتحفُّز: اسمي مهندس (هشام)، البقاء والدوام لله.



شعرتُ بالضيق من أسلوبه في الحديث، ولكني حافظتُ على هدوئي وقلتُ له: أهلًا وسهلًا يابشمهندس، حضرتك بتشتغل فين؟

قال بحذر: مهندس كيميائي في مصنع بتروكيماويات في السويس.

قلتُ باحترام مصطنع: ما شاء الله ربنا يحفظك.. عمومًا علشان منطوِّلش عليك.. إحنا هنطلع مأمورية علشان نستخرج جثة المرحومة من المدافن عندكم، وناخد منها عينة حامض نووي لمقارنتها بعيِّنة من الحاج والدها.

قال الزوج بعصبية: استخراج إيه! وعينة إيه! وليه؟ دي مراتي الله يرحمها، وملوش لازمة الفضايح وإننا نبهدل في جثة واحدة بين إيدين ربنا.

قلتُ بإصرار: الحاج والدها تقدَّم ببلاغ رسمي إنّ دي مش جثة بنته، ومش مقتنع إنك استعرفت على الجثة من الحلق، والطريقة الوحيدة لمعرفة الحقيقة هوّ اللّي أنا قلتهولك، ومفيش بهدلة للجثة ولا حاجة، علشان إحنا هنفتح حتة صغيرة ناخد منها جزء من ضِلع، ونرجَّع الجثة مكانها.. عندك اعتراض؟

قال الزوج بضيق: أيوه مُعترض، وده بلاغ كيدي وأنا مش هسكت.



هنا تدخَّل وكيل النيابة وقال بصرامة: مفيش بلاغ كيدي ولا حاجة.. الموضوع كله قانوني، والطبيب الشرعي كمان أكد لنا إن دي الطريقة الوحيدة لمعرفة الحقيقة، وكلمة زيادة هتَّهمك بإعاقة التحقيق في بلاغ رسمي.

قال الزوج بتحفُّظ: خلاص اللي تشوفوه.. بسّ أنا إجراءات استعرافي على الجثة ودفنها كانت قانوني، وبورق رسمي، وأنا استعرفت عليها بناءً على محضر مواصفات الشرطة، ولو طلعتْ مراتي هاخد إجراءات قانونية ضدّ كلّ واحد اتهمني زور أو شارك في الموضوع ده.

ثمَّ نظر لي الزوج نظرةً تحمل الكثيرَ من الكراهية والغضب، وهنا شعرت أنَّ الزوج جعل الموضوع شخصيًّا وتحديًا بيني وبينه، وكانت هذه نقطةً فارقة في هذه القضية.. فمنذُ هذه اللحظة أصبح البحثُ عن حقيقة ما حدث للسيدة (نهى) تحديًا شخصيًّا بالنسبة لي!

عقبَ ذلك مباشرة أصدر السيد وكيلُ النيابة قرارًا باستخراج الجثمان وأخْذ عينة منه ومقارنتها بعينةٍ من الأب لبيان عما إذا كانت الجثةُ المدفونة هي لابنته أم لا. وبالفعل، في صباح اليوم التالي تحرَّكت مأمورية مكوَّنة منّي ومن فني التشريح ومن السيد وكيل النيابة وقوةٍ من الشرطة، وتوجَّهنا رفقةَ الزوج إلى مدافن



العائلة، وقام الزوج بإرشادنا إلى موقع دفن الزوجة، وقمنا باستخراج الجثمان الذي كان قد تحلَّل جزئيًّا بمرور الوقت، وقمنا بأخْذ جزء من ضلع المتوفاة، ثمَّ قمنا بإعادة الجثمان إلى المقبرة.

وعقبَ عودتي إلى الإدارة من مأمورية الاستخراج قمتُ بإرسال العينة المأخوذة من الجثمان إلى المعامل الطبية الخاصة بمصلحة الطبِّ الشرعي، وطلبتُ من النيابة العامة إرسالَ الأب إلى المعامل الطبية أيضًا لأخْذ عيِّنة منه ومقارنة الحامض النووي بين العينتين.

كان هذا الإجراءُ سيستغرق ما لا يقلُّ عن أسبوع، وخلالَ هذا الأسبوع نما إلى علمي محاولات الزوج إقناع أسرة زوجته بالتَّنازل عن البلاغ بحجَّة أنه (بلاش فضايح وشوشرة)، وتارة يهدِّدهم بالقيام بإجراءات قانونية ضدَّهم في حالة ثبوت كذب بلاغهم، كما تمَّ الاتصالُ بي بواسطة أشخاصٍ ذوي علاقة بالزوج في محاولةٍ لمعرفة نتائج التحاليل وتفاصيل القضية، إلا أنَّني كنت متكتمًا بشدَّة على كافة المعلومات والإجراءات، وكلُّ ذلك كان يشير بما لا يدعُ مجالًا للشك أنَّ الزوج يحاول إخفاء شيء ما!

عقبَ مرور أسبوع بالضبط وردَتني نتائجُ تحاليل مقارنة الحامض النووي وكانت المفاجأة.. لم تكنِ الجثة المدفونة هي للمدعوة (نهى)، حيث لم يتشابَه إطلاقًا الحامضُ النووي من الجثة مع الحامض النووي من



الأب.. مما يعني أنَّ القضية اتخذت منعطفًا خطيرًا، وأنها لم تنتهِ بعد، ولكنها بدأت للتَّو!

قمتُ بالاتصال فورًا بوكيل النيابة الذي صُعِق من الخبر، وقامَ باستدعاء الزوج والأب، وقام بفتح التحقيق من جديد في القضية، وكان الزوج ثابتًا على موقفه، ومصرًّا على أقواله، ومتعلِّلًا أنَّ الشرطة هي مَن قامت بمطابقة مواصفات الجثة على المواصفات التي قدمها في بلاغ التغيب.

على الجانب الآخر، كان الأب المكلوم مصرًّا على أنَّ ابنته لم تخرج في الأساس من منزلها، وطلب من وكيل النيابة تفريغَ كاميرات المراقبة الموضوعة على مدخل العمارة التي بها شقة ابنته، وبالفعل استجاب وكيلُ النيابة لطلب الأب وقام بالتحفظ على تسجيلاتِ الكاميرات، وانتدابِ الجهات الفنية لفحصها، ولكن للأسف تبيَّن أن الكاميرات كانت تقوم بالحذف التلقائي للتسجيلات في خلال أسبوع.

على ضوءِ تلك النتائج، قام وكيلُ النيابة بالاتصال بي ودار بيننا هذا الحوار:

أنا: الوضع كده معقَّد يا (محمود) بك.. مفيش أيٍّ خيط يوصلنا لمكان الست المتغيبة.

وكيل النيابة: فعلًا يا باشا.. الأب متأكِّد بصورة غريبة



إنّ بنته مسابتش بيتها، ولو في حاجة إزاي الزوج هيخبي مراته في الشَّقة طول الفترة دي.. وبرضه مفيش دليل مادي إنها منزلتش من البيت، وتسجيلات الكاميرا اتمسحت.

أنا: أعتقد مفيش حلّ إلّا تفتيش الشقة يمكن نلاقي فيها حاجة تدلّنا على مصير الزوجة، غير كده هتبقى القضية مفتوحة.

وكيل النيابة: عندك حقّ فعلًا.. أنا حاولت أضغط على الزوج في التحقيقات، بسّ هوّ ثابت وذكي جدًّا، وأفكاره مترتِّبة، عمومًا أنا هأصدر قرار بتفتيش الشقة بكره، ويا ريت حضرتك تكون معانا.

أنا في دهشة: أنا معاكم؟ حضرتَك بتتكلم بجد؟!

وكيل النيابة: آه طبعًا بجد.. حضرتك ليك رؤيتك، ودي مش أوّل مرة نشتغل قضايا مع بعض.. خبرتي مع حضرتك الفترة اللّي فاتت، ومعرفتي بيك خلتْ عندي ثقة في إنّنا هنوصل لحلّ مع بعض في القضية دي إن شاء الله.

أنا: والله ده شَرف ليّا يا (محمود) بك.. وربنا يجعلني عند حُسن ظنّك، عمومًا هبقى عندك في المكتب بكره من الساعة 9 الصبح إن شاء الله.

وكيل النيابة: تسلم والله.. تاعبك معانا.. بسّ إن شاء



الله أنا حاسس بكره هيبقى في جديد.. أشوفك على خير إن شاء الله.

أنهيتُ الاتصال معَ وكيل النيابة وبداخلي أحاسيسُ مختلفة ومتضاربة.. إحساس بالفخر والرضا عن نفسي لثقة أعضاء الجهات القضائية بي، وإحساس بالقلق والخوف من ألّا أضيف للقضية جديدًا غدًا عندَ ذهابي مع وكيل النيابة، وإحساس بالإثارة والترقب لما ستسفر عنه الأحداث.

على أيّة حال، أيًّا كان ما ستسفرُ عنه مأمورية الغد فقد كان لزامًا عليَّ أن أذهب رفقةَ وكيل النيابة وأحاول أن أبذل جهدًا في سبيل كشف الحقيقة، فنحنُ البشر طيلةَ حياتنا وحتى مماتنا مُطالَبين ببذل الجهد والسعي الدؤوب.. أما النتيجة والجزاء فهما على الله عزَّ وجل.. }وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى{ صدق الله العظيم.

في صباح اليوم التالي، نهضتُ مبكرًا، وصلَّيت الفجر حاضرًا، وصلَّيت ركعتي قضاء الحاجة، ودعوت الله أن يلهمني الصوابَ، وينير بصيرتي في هذه المأمورية المهمَّة، ثمَّ توجهتُ إلى النيابة حيث قابلني السيد وكيل النيابة وأبلغني أنه أصدرَ تكليفًا رسميًّا لي بالتواجد في مأموريةِ تفتيش الشقة؛ حيث إنَّ الزوج استعان بمحامي ربما يعرقل وجودَ أي شخص في المأمورية ما لم يكن



هناك تكليف رسمي له.

وتوجَّهنا إلى العمارة التي بها الشَّقة رفقةَ قوة من الشرطة ووالدِ السيدة المتغيبة الذي أصرَّ على الحضور رغم إعاقته وتكبّده هو وأسرته مشقةً كبيرة حتى صعودنا للطابق الثالث، وفورَ وصولنا للشقة المقصودة وجدْنا الزوجَ ومحاميه وبعض أفراد أسرته في انْتظارنا، وحدثتْ مناوشات كلامية بينَ أسْرة الزوج وأسرة السيدة المتغيِّبة، فقرَّر السيد وكيل النيابة صرف كافة الحاضرين ما عدا الزوج ومحاميه ووالد السيدة، ودخلنا بعدها للشقة.

وعلى الرَّغم من أن الشقةَ كانت شبهَ جديدة وكان أثاثُها كأنه لم يستعمل؛ إلا إنَّها كانت مُقبِضة للنَّفس، وكان هناك لا يريحني بها؛ فقد كانت مرتَّبة ونظيفة بصورةٍ مبالَغ فيها، وكأنَّ أحدهم يحاول إخفاءَ آثار شيء ما، فهمستُ في أذن وكيل النيابة بذلك، فأشارَ لي بحريَّة الحديث والسؤال عما يدور في ذهني، فنظرتُ إلى الزوج وقلت له: هوّ حضرتك مش مقيم في الشقة هنا واللّا إيه؟

نظرَ الزوج لمحاميه نظرةً ذات مغزى، وفوجئتُ بالمحامي يجيب بتحفُّز: معلش، هوّ حضرتك مين؟ وبتسأل بصفتك إيه؟!

سارعَ وكيلُ النيابة النيابة بالرَّد، وقال: ده السيد الطبيب الشرعي، ومعانا رسميًّا في المأمورية، والباشمهندس يردّ عليه مباشرة من فضلك.



شعرَ المحامي بالإحراج وانسحبَ للخلف، وأشارَ للزوج بأن يجاوب، فقال الزوج: أنا مقيم في الشقة عادي، بسّ مش بدخلها كتير بحكم شغلي في السويس معظم الشهر.

قلتُ في هدوء: بسّ ما شاء الله الشقة نضيفة ومترتبة كويس!

ردَّ الزوج متهكمًا: آه طبعًا.. لازم الشقة تتنضَّف كويس قبل ما الضيوف تيجي.

تجاوزتُ تهكمَه وتابعتُ تفقُّدي لأرجاءِ الشقة رفقةَ وكيل النيابة وضابط الشرطة، وعلى مدار ساعتين لم نترك شِبرًا في الشقة إلّا وفحصناه، حتى نالَ منّا التعب، فنظرَ لي وكيل النيابة بيأس، وقال: باين كده مفيش حاجة يا دكتور (مصطفى)!

نظرتُ له وقلت موافقًا: آه فعلًا.. كلّ حاجة جديدة ومتنظَّمة كويس.. شكلنا رجعنا لنقطة الصفر تاني.

سمعَ والد الزوجة المتغيِّبة حوارنا فاقترب منّا، وقال بتوسُّل، وبصوت عالٍ أقربَ إلى النحيب: أبوس إيديكم شوفوا تاني.. دوَّروا كويس تحت السجاجيد.. شوفوا تاني في الدواليب.. افتحوا البلكونات.. بنتي هنا أقسم بالله.. بنتي بتجيلي في الحلم وهيّ بتصرخ ومحبوسة في شقّتها وبتستنجد بيّا.. أنا أب، وقلب الأبّ عُمره ما



يخيّب.

تدخَّل الزوج في الحديث مهاجمًا الأب، وقائلًا بعدوانية: سجاجيد وبلكونات إيه يا راجل يا مجنون أنت!؟ بنتك إيه اللي هنا وبتصرُخ؟ أنتَ شكلك خرَّفت.. مش كفاية فضايح وقلّة قيمة بقى؟ الناس قلبتِ الشقة ومفيش حاجة!

استفزَّني جدًّا تلك العدوانية وقلة الاحترام التي يتحدَّث بها الزوج مع الأب المكلوم، وخاطبته بحدَّة: عيب يا بشمهندس الكلام ده.. ده راجل كبير قدّ والدك، وبنتُه مفقودة، وبيدوَّر على أيِّ أمل علشان يلاقيها عايشة ولا ميتة.. هو متهمكش بحاجة.. هوّ عاوز يعرف بنته فين وبس!

ردَّ الزوج عليَّ بعُدوانية وعصبية أكبر، وقال: ملكش دعوة.. ده بيتي وأقول اللّي أنا عاوزه فيه.. مش كفاية مستحملك وانتَ عامِل فيها المفتِّش كرومبو واللّا كونان، وقاعد تستخرج في جثث وتفتِّش في شقق، وقالب عليّا الدنيا؟ أنتَ فاكر يعني كنت هتلاقي إيه؟ جثّة مدفونة تحت أرضية الشقة واللّا محطوطة في الدولاب؟ أنتوا الأفلام والمسلسلات عملت لكم غسيل مخّ واللّا إيه؟!

كان الزوج قد تجاوزَ كافة الحدود بحديثه هذا، وكان كلامُه مستفزًّا لأقصى مدى، مما دفع الأبَ لمحاولة



التشابك معه وهو يصرُخ بهستيرية: بنتي راحت فين يا مجرم؟ أنتَ قتلتها وخبّيت جتتها فين؟ أومّال إيه.. اتبخرت واللّا ساحت واللّا طارت؟ أقسم بالله ما هسيبك.

هنا، عمَّت الفوضى المكانَ مما دفع وكيل النيابة بالقول بصوتٍ مرتفع: كلّه يسكت فورًا، يا إمّا هصدر قرار بالتحفظ عليكم كلكم، وتوجيه تهمة إهانة القضاء وعرقلة سيْر العدالة.

كان لتهديده أثرٌ فوري حيث صمتَ الجميع، وتبادلوا نظراتٍ صامتة غاضبة، وعلى الجانب الآخر فقد شعرتُ بحاجة شديدة إلى دخول دورة المياه حيث إنَّني أعاني من القولون العصبي، وكان التوتر يجعلني أحتاجُ لاستخدام دورة المياه بصورة عاجلة، ممّا دفعني لقطع الصَّمت المطبِق على المكان بقولي: هستأذنكم أدخل الحمام.

ظهرَ شبحُ ابتسامة ساخرةٍ على وجهْ الزوج وقال : آه اتفضَّل طبعًا.

توجَّهت إلى دورة المياه على الفور، والتي كنّا قد قمنا بتفتيشها من قبْل، وما إن دخلتُ حتى أغلقت البابَ، وما إن انتهيت حتَّى وقفت أمامَ المرآة وشرعت في غسل وجهي ومحاولة استعادة نشاطي.

كان الجوُّ المتوتر في الخارج قد أفقدني تركيزي، وكنت



أشعرُ بالضيق من عدم عثورنا على أيٍّ دليل على مكان الزوجة المتغيِّبة داخل الشقة، والحقيقة أنني لم أكن أريد اختلاقَ دليل أو إلصاقَ تهمة بشخص بريء، ولكن هناك أمرٌ غير مريح بزوج السيدة المتغيبة.

لقد كان خاليًا من المشاعر، ولا يبدو عليه تأثُره باختفاء زوجته، وكانت الشقةُ مرتَّبة ونظيفة لدرجة مريبة، والأهم عدوانيتُه الغريبة تجاه كلٍّ مَن يحاول البحث عن الحقيقة أو حتى البحث عن زوجته!

لا يوجد منطقٌ في اختفاء الزوجة دون أثر، كأنها تبخَّرت أو ذابت كما قال والدها المكلوم.. مهلًا.. تبخَّرت أو ذابت.. احتمالية واردة.. ينقصها الإثبات.. كيف يذوب شخصٌ؟ وأين يذوب شخص؟!

نظرتُ بإمعانٍ لدورة المياه وظهر لي أمرٌ غريب؛ لقد كانت كلُّ مكوناتها عبارة عن طقم من السيراميك المتطابق في اللون والتَّصميم.. ما عدا (البانيو).. نعم (البانيو) ذو لونٍ مقارب، ولكنه ليس متطابقًا مع باقي الطقم، بالإضافة لهذا يبدو أنه جديد، ولم يتمّ استخدامُه قَط، وكأنه قد تمَّ استبدال القديم بآخر جديد!

ما الذي يدفع شخصًا لم يمرّ على زواجه سوى عام واحد على تبديل (البانيو) القديم بآخر جديد؟!

كانتِ النظرية قد بدأت تتَّضح في مخيلتي.. لقد قام



الزوج بقتل زوجته لأيٍّ سبب، وقام بالتخلص من الجثة بإذابتها داخل (البانيو) باستخدام موادّ كاوية قوية قادرة على إذابة الجثمان، وهو بحُكم عمله كمهندس كيميائي بشركة بتروكيماويات فهو على خبرةٍ ودراية بتلك الموادّ وتأثيرها، وقادرٌ على الحصول عليها دون إثارة الشَّك، ونظرًا لتضرُّر (البانيو) القديم المصنوع غالبًا من بلاستيك مقوًى بفعل الموادّ الكاوية، فقد قام باستبداله بآخرَ جديد، ولكن ليس مطابقًا للآخر الذي جاء مع الطقم.

ولإثبات نظريتي كان عليَّ أن أستدعي وكيلَ النيابة وقوةَ الشرطة المرافقة للبدء في فحص الحمام بدقَّة، وللبدء في إثبات نظريَّتي قمتُ بفتح باب دورة المياه وقمتُ بمناداة الجميع قائلًا: (محمود) بك.. تعال هنا لو سمحت.

هُرِعَ الجميع على إثرِ مُناداتي لوكيل النيابة، وقال وكيلُ النيابة في قلق: خير يا دكتور حصَل حاجة واللّا تعبت؟!

قلتُ بهدوء: لا يافندم أنا زيّ البمب.. الحمام هو اللي مش مظبوط.

بدتِ الدهشة على وجْه الجميع، وقال وكيل النيابة: حمام إيه اللي مش مظبوط.. مش فاهم قصدك؟

قلتُ موضِّحًا: الحمام كلُّه طقم واحد متناسق ما عدا



البانيو.. البانيو ده متغير قريب!

ظهرَ التوترُ على وجْه الزوج، وقال بضيق: وفيها إيه يعني! هوّ في قانون يمنع تغيير البانيوهات واللّا إيه؟

قلتُ مبتسمًا: غيَّرته ليه؟!

قال الزوجُ في عناد: كنت باستحمّى ووقعت عليه.. وانتَ عارف إنّه بلاستيك مش سيراميك.. فاتكسر.

قلتُ له: بعدَ اختفاء مراتك واللّا قبلها؟!

قال الزوج: بعدَها.

قلتُ له: ممكن تورِّينا القديم فين؟!

قال الزوج: رميته.

قلتُ في تحدٍّ: تمام.. يبقى نفحَص بقى الحمام كويس.. يا (محمود) بك، أستأذنك عاوزين نكسَر على ماسورة صرف البانيو.. يا ريت حدّ يشوف لنا سباك.

بدتِ الدهشةُ على وجه وكيل النيابة وقال: كسْر إيه.. وسباك إيه؟ أنتَ بتتكلم بجد؟

قلتُ بجدية: أيوه بتكلم بجد.

قال وكيلُ النيابة: أنتَ بتفكر في إيه فهمني!

قلتُ بتصميم: مش طبيعي إنّ شخص يغيَّر بانيو البيت.. خاصّة بعد اختفاء زوجته.. غالبًا اللّي حصل



إنه قتلها، وبعدين حلّل جثتها في البانيو بموادّ كاوية، وعلشان يخفي آثار جريمته غيّر البانيو القديم كمان!

بدتِ الحيرةُ على وجه وكيل النيابة، بينما بدَا الذهولُ على وجه الزوج وهو يقول: أنتَ بتستهبل؟ إيه التخاريف دي؟ أنت مجنون أقسم بالله.

قلتُ بهدوء: لو أنتَ بريء هتخلّينا نفحص ماسورة صرف البانيو.

قال الزوجُ بعناد: أنا بريء، ومحدِّش هيكسر حاجة.

ظهرَ الشكُّ على وجه وكيل النيابة عقبَ موقف الزوج، وقال لي: دكتور (مصطفى).. أنتَ متأكد من اللي بتقوله؟

قلتُ باطمئنان: مش هنخسَر حاجة يافندم.. إحنا بندوَّر على حقّ واحدة اللهُ أعلم هيّ فين، ولازم ندور على أي خيط مهما كان غريب أو صغير.

صاحَ الزوج: أنا هدفَّعكم تَمن كلّ شبر هيتكسر.. وهرْفَع عليكم قضايا ومش هسيبكم.

قلتُ ساخرًا: هدفع لك أنا تَمن التلفيّات من جيبي الخاص لو طلعت غلطان.

نظرَ الزوج إلى محاميه وقال: هوّ أصلًا من حقّهم يكسروا ويحفروا؟!



قال المحامي: آه من حقّهم.. معاهم ضبطيّة قضائية يابشمهندس.

قالَ وكيل النيابة: شوفوا لنا أقرب سبَاك وخلّيهم يجيبوا عدَّة تكسير بسرعة.

ثمَّ نظر لي وكيلُ النيابة وقال: عارف يا دكتور (مصطفى) لو طلعت غلطان؟ هيبقى شكلنا إيه؟

قلتُ له بقلق: عارف.. بسّ أنتَ عارف لو طلعت صحّ هيبقى عملنا إيه؟

ابتسمَ وقال: عارف.

خلالَ دقائق حضر سباك، وبدأ في تكْسير السيراميك للبحث عن مَسار ماسورة صرف البانيو، وكلما زاد التكسير زادَ تحفزُ الزوج وتوترُه، وزادت تهديداته وتوعُّده لي تحديدًا.

وفي خلال دقائق ظهرتِ الماسورة، وكانت ماسورةً سوداء من البلاستيك المقوى، وفورَ ظهورها قلت بصوت عالٍ: كفاية عليك كده يا أسطى.. ناولني منشار حدّادي من اللي معاك.

بدتِ الدهشةُ على وجوه الجميع، وقال وكيل النيابة: أنتَ بطَّلت تشريح جثث وهتشتغل في تشريح المواسير؟!

ابتسمتُ وقلت: معنديش مانع لو في جثة جوَّه



الماسورة.

وما إنْ سمع الزوج جُملتي حتى أصابه حالةٌ من الهياج، وحاول الانقضاضَ عليَّ لضربي ومنْعي مما سأقوم به.. فقامت قوةُ الشرطة المرافقة بالسيطرة عليه.

على الفور، قمتُ بمحاولة قطع الماسورة بمقطعٍ طولي للكشف عن كامل مَسارها، وقام السباك بمساعدتي، وبمجرد فتحها على كامل طولها كانت المفاجأة!

تبينّا وجودَ أجزاء صغيرة من أنسجةٍ بشرية جافَّة بالجدار العلوي للماسورة، وتبينّا وجودَ أجزاء صغيرة من قطع يشتبه في كونها بقايا عظام وأسنان، وقليل من الشَّعر أيضًا، وكانت هذه المشاهدات تؤكدُ نظريتي أنَّ الزوج قد قام بقتل زوجته وإذابة جثتِها باستخدام مواد كاوية داخل (البانيو).

كانت كلُّ المشاهدات أمامَ وكيل النيابة وقوة الشرطة المرافقة، مما دفع وكيلَ النيابة إلى القول بصوت مرتفع: اتحفَّظوا لي على الزوج فورًا.

وعلى الفور، تمَّ التحفظ عليه، وبدأ الزوجُ في الصراخ بهستيريَّة وهو يقول: أنا معملتش حاجة.. أنتوا كدابين.. مش أنا اللي قتلتها.. أنا رجعتِ البيت ملقيتهاش.

نظرَ لي وكيلُ النيابة بسرور وهو يقول: مش عارف أقولّك إيه يا دكتور (مصطفى).. بسّ انت عملت معجزة



أقسم بالله.

قلتُ في تأثُّر: معملتش حاجة يافندم.. أبو الزوجة هوّ اللي عمل كلّ حاجة.. هوّ اللي فضل ورا حقّ بنته لغاية ما أقنعنا.. وإحنا مجرد أسباب.

قال وكيلُ النيابة: طيب الآثار اللي شفناها دي ممكن نحلِّلها ونطلع منها الحامض النووي ونقارنه بالأب؟

قلتُ في شك: اللهُ أعلم.. بسّ ممكن المواد الكاوية تكون أثَّرت على الحامض النووي اللي في بقايا الجثمان.

قال بتفاؤل: عمومًا حالًا هأتصل بالمعمل الجنائي ييجوا يفحصوا كلّ شبر في الشقة، وياخدوا البقايا دي ويفحصوها، وإن شاء الله يلاقوا دليل يربط الزوج بقتل زوجته.

قلتُ له مؤكدًا: ويا ريت تشوفوا البانيو القديم فين، هتلاقوا عليه تآكل بسبب المواد الكاوية وممكن تلاقوا كمان بقايا أنسجة أو دم أو بصمات عليه.

قال وكيلُ النيابة: عندك حقّ.. لسَّه التحقيق مع الزوج هياخد وقت ومجهود طويل.. توكَّل أنتَ على الله والعربيَّة منتظراك تحت، وأنا هبلَّغك بالجديد، وعاوزين منّك تقرير قوي إن شاء الله بناءً على التحقيقات والمشاهدات بتاعة النهارده.



قلتُ له مبتسمًا: أكيد إن شاء الله.. ربّنا يعينكم في اللي جاي.

ثمَّ تركته، وأثناءَ مغادرتي الشقة.. وجدتُ الأب يجلس على كنبة بالصالة ويحتضن صورةً لابنته، وما إن رآني حتى اقترب منّي وأمسكَ بيدي وحاولَ تقبيلها قائلًا: أبوس إيدك يا بيه.. ربنا يكرمك ويستُر عرْضك زيّ ما صدَّقتني وجبت لي حق بنتي.. لولاك كان جوزُها المجرم فلت من جريمته!

سحبتُ يدي بسرعة كي لا يقبِّلها وقلتُ بتأثر: البقاءُ والدوام لله يا حاج.. كان نفسي نطلع غلطانين وبنتك تطلع عايشة.. بسّ للأسف كانت ضحية زوج مُجرم، منّه لله.. ربنا ينتقم منه!

انهارَ الأب في البكاء، وحضر ابنُه كي يواسيه، وغادرت الشقةَ وأنا ما بين مشاعر متضاربة، مشاعر السعادة بكشف جريمة بَشعة واستعادة حقّ ضحية بريئة، ومشاعر الأسى والحزن على نهاية بشعة ومقتل نفس بشرية.

في الأيام التالية، أظهرتِ التحقيقات الحقيقةَ كاملة، فقد حدثَ خلافٌ بين الزوج وزوجته، وتطور الخلاف إلى اعتداء جَسدي أدَّى إلى سقوط الزوجة داخلَ الحمام، وارتطام رأسها بحافَّة الحوض مما أدَّى إلى وفاتها على



الفور، وخشيَ الزوج من افتضاحِ أمره. فقامَ بوضْع الجثمان في (البانيو) وإذابته بكمياتٍ كبيرة من المواد الكاوية التي استغلَّ توفرَها بين يديه نظرًا لكونه يعملُ في مصنعٍ للبتروكيماويات، وعقبَ انتهائه من التخلص من الجثمان قامَ بتغيير (البانيو) القديم المتآكل بآخرَ جديد، وقد اعترفَ الزوج المتهم بمكان إخفاء (البانيو) القديم فوق سطح العمارة.

وقامتِ الأدلة الجنائيةُ بفحص كلِّ الأحراز، وتبيَّن بالفعل وجودُ آثار لمادَّة كاوية على البانيو القديم، ولكن تعذّر للأسف استخلاص الحامض النووي من البقايا البشرية التي كانت في ماسورة الصرف، إلا إنَّ اعترافَ المتهم كان كافيًا عقب انهياره بعدَما واجهته النيابة بالأدلة والقرائن ضده.

عقبَ وصول كافَّة الأقوال وملف التحقيقات لي، قمتُ بإعداد التقرير الطبي الشرعي الخاصّ بهذه القضية، وكان إعداد التقرير قد تطلَّب مجهودًا وتركيزًا عاليين حتى يخرج بصورةٍ دقيقة لا تسمح للجاني بأن يفلت بفعلته.

عقبَ ذلك قمتُ بالعودة إلى المنزل، وما إنْ دخلت إلى منزلي حتى قالتْ لي زوجتي: بقى لك كام يوم مش مبسوط؟ إيه اللّي حصل؟

قلتُ لها: كان معايا قضية صعبة شوية.. بسّ الحمد



لله خلصت على خير.

قالت زوجتي: قضية إيه كفى الله الشَّر اللّي كانت معكننة عليك قوي كده؟

قلتُ لها: قضية لزوج قتل زوجته وتخلص من جثتها بطريقة بشعة.

نظرتْ لي زوجتي نظرةً ذات مغزى، وقالت: قصدك إيه يعني؟

ضحكتُ بصوت عالٍ وقلت لها: لا ما تخافيش.. مقصدش حاجة.. أنتِ اللّي زيّك يتحطّ على الراس والله.

ابتسمتْ وقالت: طب الحمد لله.. بسّ أهمّ حاجة لما تضّايق منّي تقولي وما تستناش لغاية لما الشيطان يلعب بدماغك.

ضحكتُ وقلت: لا متقلقيش إن شاء الله، أنا لما بتضايق بستعيذ بالله من الشيطان على طول.

ولأوّل مرة منذُ فترة طويلة أجلس في منزلي لأتناول طعامَ الغداء كشخصٍ طبيعي بعد فترة طويلة من الضغط العصبي بسبب موجةٍ هائلة من القضايا البشعة!



خايف



وفي سؤال من المستمع: أكيد أنتَ كطبيب شرعي وصلت لـ level الوَحش، ومبقيتش تخاف من حاجة.. مش كده؟

والإجابة للأسف.. بسبب الطبِّ الشرعي أنا بقيت بخاف من حاجات متخوِّفش طفل صغير أصلًا.

بخاف أسلّم على حدّ غريب، أو أركب تاكسي يمشي في شارع معرفوش.

بقيت أخاف أزعَّق أو اتخانق مع حدَ أعرفه أو معرفوش.

بقيت أخاف من مسْكة بنتي للموبايل وقفلة باب أوضة ابني.

بقيت أخاف أغضب بسبب أو من غير سبب.

بقيت أخاف أعيش لوحدي ولو يوم.



أخاف أتفرَّج على خناقة أو فيديو عنيف.

أنا مُعظم أفعالي بقتْ نابعة من خوف، وليست نابعة من رغبة أو دافع !



القضيةُ السّابعة

(يومٌ دامٍ)



لو سمحت يا دكتور مصطفى، خلّيك في المشرحة علشان في جثة تالتة صدَر لها قرار تشريح على ذمة نفس القضية!!

كانتْ مكالمة مُقتضبة من مدير إدارة الطبِّ الشرعي التي أعمل بها.. ولكنْ هذه المكالمة المقتضبة كانت تعني الكثير.. كانت تعني أنني سأظلُّ في المشرحة لأطول وقتٍ في حياتي منذُ التحاقي بالعمل في الطب الشرعي!

كنتُ قد قدِمت إلى هذه المستشفى أولًا لتشريح جثمان صبي صغير، ثمَّ حدثتْ مشاجرة نتجَ عنها وصولُ جثمان رجل عجوز متَّهم بقتل الصبي الصغير، والآن في الطريق جثة ثالثة مرتبطة بنفس القضية!

كان يومًا طويلًا بالفعل، وكانتْ ملابسي قد تلوَّثت بدماء الضحايا، كما كانت كلُّ الدلائل تشير إلى أنَّ تلك القرية الصغيرة الغاضبة لن تتوقفَ عن إرسال الجثامين إلى المشرحة إلا بعدَ أن تتَّشح كل بيوتها بالسواد!

جلستْ على أقرب مقعدٍ في المشرحة ألتقطُ أنفاسي في انتظار الجثة الثالثة، وعدتُّ بذاكرتي إلى صباح اليوم وأخذت أتذكر ما حدث.

(أيوا يا عم.. الناس اللي طالعة أمريكا 3 شهور دي.. ماشية معاكم) نطقها زميلي د/ علي بصوت عالٍ



ومرح، عقبَ فوزي بمنحةٍ تدريبية في أمريكا لمدة 3 شهور، وانتشار الخبر بمصلحة الطبِّ الشرعي، ولم يكن أحدٌ يعلم مدى صعوبة حصولي على هذه المنحة، وكمّ الاستعدادات والاختبارات التي قمتُ بها، والمنافسة الشرسة التي خضتها لحصولي على هذه المنحة.

الجميعُ دائمًا يشاهد الإنجازَ ويحسدك على النجاح، ويتمنى أن يكون مكانك، ولكن لا أحدَ يعلم ماذا بذلت في تحقيق هذا النَّجاح، وما الذي عانيته في كلِّ خطوة، ولا أحد بالطبع يرغبُ في دفع الثمن الذي دفعته أنت مِن وقتك وصحتك وأموالك وأعصابك من أجل تحقيق هذا النجاح!

تظاهرتُ بالمرح وأنا أردُّ على زميلي د/ علي، وقلتُ له: قول ما شاء الله يا عِلوة باشا.. ده أنا لسّه مجاليش حتى تأشيرة سفر أمريكا.. كلامكم ده هيخلّي حرب عالمية تالتة تقوم، أو وباء يجتاح العالم والسفرية تتلغى.

ضحكَ زميلي (علي) بصوتٍ عالٍ، وقال: لا متخافش.. اللي زيَّك أموره سالكة، حتى مأموريات التشريح بتاعتك بتبقى صَد رد.. تقولش ساحر!

شعرتُ داخلي بضيقٍ حقيقي من كلماته، خاصَّة أنني من الشخصيات التي تؤمنُ بالحسد حتى ولو كان حديث زميلي عبارة عنْ مزاح في الأساس، وحاولتُ أن أخفي ضيقي، وقرأتُ المعوذتين سرًّا قبل أن أقول لزميلي:



الحمدُ لله، ده فضل من ربنا، وربّنا يعين الجميع على مشاغله.

ثمَّ انسحبتُ بهدوء من الغرفة وتوجَّهت إلى مكتبي وأنا أشعر أنَّ هذا اليوم لن يمرَّ على خير عقبَ جرعة الحسد العلني المركزة التي نلْتها من زميلي، وكان حدْسي لا يخطئ كالعادة، ولكنني توكلتُ على الله وأخذتُ أذكر بعضَ الأدعية والأذكار في محاولةٍ لإزالة هذا الضيق الذي ينتابني.

لم تمرّ سوى نصف ساعة حتّى استدعاني مديرُ الإدارة إلى مكتبه، وما إن دخلت إلى مكتبه حتى قال لي: إتفضَّل يا درش باشا، أخبارك إيه؟ سمعنا إنك طالع أمريكا إن شاء الله منحة حلوة كده لمدة ثلاث شهور!

نظرتُ إليه بشكٍّ، وقلت له مصطنعًا المرح: الله يبارك فيك يا باشا.. دي بركة دعاكم ليّا، ودي حاجة بسيطة يعني من بعض ما عندكم.. ما هي المصلحة كلها قبْل كده سافرت منحة لألمانيا وأنا ماسافرتش عشان ظروف خاصة.

ضحكَ مديري وقال: بسّ ألمانيا حاجة وأمريكا حاجة، أمريكا أمّ الدنيا برضه.. ههههههه

قلتُ له محاولًا صرفَ انتباهه عن موضوع أمريكا وسَفري: تمام يا ريس.. ربّنا يوفق الجميع، وعقبال



حضرتك المرة الجاية إن شاء الله نطلع أمريكا جماعة.

قال المدير ضاحكًا: ليه هنطلع عُمرة أمريكا واللّا إيه؟ هاهاها.. خلّينا في المهم؛ في مأمورية تشريح كده صغيرة.. في ولد مات في ورشة وهو بيشتغَل فيها، والدنيا مَقلوبة هناك لأنّهم متَّهمين صاحب الورشة إنّ هوّ اللي قتل الولد.. مأمورية كده بسيطة خدْها صَدّ رَد، وتعالى على طول، علشان زميلك هيفضل معايا في المكتب وراه قضايا متأخرة.

قلتُ للمدير: تحت أمْرك يا ريس، حالًا أنزل إن شاء الله، وربّنا يستر ونرجع بسرعة إن شاء الله.

ثمَّ خرجت من مكتب المدير وتوجَّهت إلى مكتبي حيث قمتُ بتجهيز حقيبتي التي بها بعض المعدات التي أستخدمها في تسجيلِ المشاهدات التي أراها أثناءَ التشريح، وقمتُ باستدعاء فني التشريح عمّ (سبع)، وقمنا باستقلال سيارة الإدارة والتوجُّه إلى مأمورية التشريح.

كانتِ المسافة إلى المكان الذي يتواجد به جثمانُ الطفل غيرَ قصيرة، وكان للأسف السفرُ والتنقل هو أكثر ما يرهقني وليس مأمورية التشريح في حدِّ ذاتها أو فحص الجثة، وما إنْ وصلنا إلى المستشفى حتى وجدنا تجمهرًا للناس أمام باب المشرحة.



على الفور قمتُ بالتواصل مع ضابط الشرطة المسئول عن تأمين المنطقة، وطلبتُ منه مساعدتي في دخول المشرحة، فقال لي وهو متوتِّر: صباح الفُل معالي الدكتور، أخبارك إيه؟ يا ربّ تكون بخير.. معلشّ الدنيا قلق شوية لأنّ الواد ده مات داخل ورشة، ودكتور الصِّحة لمّا كشف عليه قال إنّ في شبهة اعتداء جنسي، وفي زيّ تقرُّحات كده في فتحة الشرج وكلام كثير خلّى الناس غضبانة.

قلتُ له بتحفُّز: مفتش الصِّحة قال إن في اعتداء جنسي؟

قال ضابط الشرطة مؤكدًا: أيوه، طبيب الصحة قال إنّ في شبهة، وقال يستدعَى الطب الشرعي.

قلتُ في قلق: طيب خير إنْ شاء الله.. ساعدنا بسّ نخشّ المشرحة وأمِّن لنا المكان من برَّه، وإحنا إن شاء الله هنقوم باللازم وزيادة.

وما هي إلا دقائق حتى قام ضابطُ الشرطة والقوة المرافقة له بإبعاد الأشخاص المتجمْهرين أمام باب المشرحة، وقال لهم: مش عاوزين لَمّة هنا الله يصلح حالكم. الطبيب الشرعي أهو، وعاوز يخلَّص الجثة بسرعة علشان يطلّع لكم تصريح الدفن وتلحقوا تدفنوا على صلاة الظهر إن شاء الله.



وفورَ سماع المحتشدين عنْ إمكانية استلامهم الجثة ودفْنها عند صلاة الظهر قاموا بالانصراف بعيدًا عن باب المشرحة مما سمح لي بدخول المشرحة.

وبسرعة، دخلتُ المشرحة ووجدتُّ جثمانَ الطفل موضوعًا فوق طاولة التشريح ويغطّيه غطاءٌ أبيض اللون، وبكشف الغطاء تبيَّنت أنَّ الجثمان لطفل نحيفُ البنية يبلغ من العمر حوالي عشْر سنوات تقريبًا، وكان عليه من الملابس زي رياضي (ترينج) أطفال بلوْن أزرق، وتبيَّنت أنَّ ملابسه كاملة بما فيها الملابس الداخلية، والملابس الداخلية خالية من أية تمزُّقات أو تلوثات مشتبهة.

وبإزالة ملابس الطفل المتوفَّى وفحص عموم جسده تبيَّنت أنَّ الرسوبَ الدموي الرِّمي موجودٌ بخلفية الجثة بلون داكن، وكذلك تبيَّنت وجودَ زُرقة بأظافر يدي وقدمي الطفل، وأيضًا بالشفتين، كما تبيَّنت أنَّ لسان الطفل يبرز عبر أسنانه لخارج الفم مع عضٍّ على اللسان مع وجود إفرازات مدمَّمة تخرج من فتحتي الفم والأنف، وتبيَّنت أنَّ الطفل قد تبول على نفسه.

كانتِ العلامات مقلقة، وتشير إلى وجود فشلٍ تنفُّسي حاد، ولكنْ ما زاد قلقي هو وجودُ سحْجات وخدوش في وجه الطفل وهوَ ما يثير الشكَّ في أنَّ الطفل قد تعرضَ للخنق أو الاعتداء الجسدي الخنق قبل الوفاة.

وأيضًا قمتُ بالكشف الموضعي الشرجي وتبيَّنت أنَّ



هناك اتساعًا بفتحة الشرج، ولكن هذا الاتساع من المعروف علميًّا أنه قد يحدُث نتيجة ارتخاء عضلاتِ المتوفى عقبَ الوفاة، كما تبينت وجودَ التهابات بسيطة بفتحة الشرج، وعلى سبيل الاحتياط قمتُ بأخذ مسْحات شرجية من الطفل المتوفى لفحصها معمليًّا، وبيان عما إذا كان بها تلوثات منويّة من عدمه.

عقبَ ذلك قمتُ بالبدء في تشريح جثمان الطفل، ولم أتبيَّن بفحص كامل الجثمان وجودَ أية علامات مرضية أو إصابية ظاهرة من شأنها إحداث وفاة الطفل، ولكن تبيَّنت وجودَ احتقان شديد بكلٍّ من المخ والرئتين والقلب ووجود نقاط نزفية على سطحهم، وهي علاماتٌ غالبًا ما تكون موجودة مع حالات الأسفكسيا والاختناق، ونظرًا لكون الحالة غامضة فقد قمت بأخذ عيناتٍ للفحص الكيماوي للبحث عن السُّموم والمخدرات والمنومات، كما قمتُ بأخذ عينات من أعضاء الجسم للفحص الباثولوجي الطبي للبحث عن أيٍّ معالم مرضية مجهرية قد تكون بجثمان الطفل.

عقبَ ذلك قام فنّي التشريح المرافق لي بإغلاقِ جرح التشريح بالجثمان، بينما قمتُ أنا بعمل إشارة مبدئية تفيد بانتهاء التشريح وذكرتُ فيها (نرجئ إبداءَ الرأي في سبب الوفاة لحين الانتهاء من تحليل العينات الطبية والكيماوية المأخوذة من جثمان المتوفى والجثة تحت



تصرف النيابة).

ثمَّ غادرنا أنا وفني التشريح المشرحةَ على وجه السرعة، وقمنا بتسليم إشارةِ انتهاء التشريح إلى الضابط المسئول، وتوجَّهنا إلى سيارة العمل عائدينَ إلى الإدارة، ولكنْ للأسف اتَّضح أنَّ مأموريتنا لم تنته بعد وأنه مازال لدينا كثير من العمل!

في منتصف طريقِ العودة تلقَّيت اتصالًا من السيد مدير الإدارة يخبرني فيها بوجود إشارةِ تشريح تخصُّ جثة أخرى في نفس المكان الذي كنّا فيه، وبمحاولة معرفة تفاصيل الواقعة أخبرني أنَّ المتوفى هو شخص كبير في السن، وهو صاحب الورشة التي كانَ يعمل بها الطفل المتوفى الذي قمت بتشريح جثته.

شعرتُ بالقلق نتيجةَ ارتباط الجثة الثانية بوفاة الطفل، فهذا يعني أنَّ هناك توترًا في المكان الذي سأذهب إليه مع وجود خطواتٍ انتقامية متوقَّعة ومتبادلة بين أسْرة الطفل المتوفى وأسرة صاحب الورشة المتوفى، ولم أكن أبدًا أحبُّ أن أكون في منتصف مثل هذه المعركة.

قمْنا بالالتفاف والعودة إلى المشرحة التي كنّا بها منذ قليل، وفي هذه المرَّة كان الوضع أشدَّ توترًا، فقد كان هناك زيادة في الحشود المتواجدة أمامَ المشرحة، وفي المقابل تواجدتْ تعزيزات أمنية من الشرطة وقوات الأمن المركزي في محاولة للسيطرة على الموقف



والفصل بين أسرتي المتوفيين.

وفورَ وصولي للمكان قام الضابط المسئول بالحضور إليَّ رفقةَ قوة من الحراسة وقال لي بقلق ملحوظ: بص يا دكتور.. الموضوع كبر، وعاوزين حضرتك تخلَّص بسرعة علشان كلّ ما خلَّصنا وسلِّمنا الجثة بسرعة للأهلية؛ الناس هتهدى وهنعرف نصرفهُم من هنا.

رددتُّ عليه بضيقٍ واضح، وقلت له: هو إيه الحكاية؟ إيه اللّي حصل تحديدًا عشان أبقى عارف أنا داخل على إيه؟

قال الضابط: اللّي حصل الصبح إنّ الواد اللي مات في الأول كان شغّال في الورشة بتاعة الراجل اللي مات دلوقت، وبعد ما ابتَدوا الشغل بحوالي ساعة.. الراجل صاحب الورشة خَد العيّل وطلع يجري بيه على المستشفى وهو بيقول إن الواد جاله تشنُّجات فجأة، وطبعًا على ما الراجل وصَل للمستشفى كان العيّل مات، والدكاترة حاولوا يعملوا له إنعاش بسّ قضاء الله نفذ، والدكتور اللّي فحص الطفل المتوفى اشْتبه في وفاة الطفل لما لقاه مزرق، ولقى فيه خدوش كده في وشُّه، وبيقول إنه لقى فتحة الشرج غير طبيعية ومحمرة، وكتَب في تقريره وفاة مُشتبهة ويتمّ التحفُّظ على الجثمان وإبلاغ الشرطة والنيابة، وساعتها بسرعة صاحب الورشة طلع يجري من المستشفى وراح بيتهم وقفل على نفسه.



زادَ توتُّري بعد كلّ ما سمعت وقلت لضابط الشرطة: إيه اللي حصل بعد كده؟

قال ضابط الشرطة: أهليّة الطفل لما عرفوا اللي حصل.. ناس منهم طلعوا جري على بيت صاحب الورشة وحاصروه، وطبعًا إحنا كنّا مشغولين في تأمين المشرحة هنا، وبعدين صاحب البيت استنجد بأهله اللي حضروا واشتبكوا مع أهلية الطفل وحاولوا يخرَّجوا صاحب الورشة من البيت، وأثناء خروجه أحد أفراد أسْرة الطفل اعتدى عليه بالضرب ووقع ميّت صاحب الورشة.

في هذه اللحظة، اتَّضحت أمامي الصورة، وكانت الحالة غالبًا ستكون وفاة نتيجة إصابة بالرأس أو إصابة طعنية، وكنت أعتقد أنّ مأمورية هذه المرة ستكون سهلة، إلا إنّي كنت مخطئًا للأسف.

دخلتُ على الفور إلى المشرحة، وكانت جثةُ صاحب الورشة مُسجاة على طاولة التشريح، وكانت الجثة لرجل في حوالي السِّتين من العمر، وممتلئَ البنية، وعليه جلباب لونُه أسود، وتبيَّنت وجود تمزُّق بالجلباب من منطقة الصدر مع وجود أتربة على الجلباب.

وبإزالة الملابس وفحصِ الجثمان لم أتبيَّن وجودَ إصابات قاتلة بالجثمان، وكلُّ ما ظهر لي هو عبارة عن خدوش باليدين وسحْجات بالركبتين معَ وجود احتقانٍ واضح بالوجْه والعينين، وسائل مدمَّم يخرج من فتحة



الأنف والفم.

ثمَّ قمتُ بالبدء في التشريح، واتَّضح لي أنه لا توجَد إصابات داخلية أو أنزفة يمكن أن تكونَ قد تسبَّبت في الوفاة، ولكن على الجانبِ الآخر تبيَّنت وجودَ تضخم ملحوظ بالقلب معَ وجود ضيِّق بالشرايين التاجية المغذية للقلب، وتبينت وجودَ احتقان واضحٍ بالرئتين وبالمخ، وكانتْ هذه المشاهدات تشير بصورةٍ كبيرة إلى أنَّ وفاة هذا الشخص هي وفاة مرضية وليست إصابية، ولكنْ لمزيدٍ من الاحتياط قمتُ بأخذ عيناتٍ للفحص الكيماوي، وعينات من الأعضاء للفحص النسيجي الباثولوجي، خاصَّة مِن القلب والشرايين التاجية ومن المخ.

وعقبَ ذلك قام فنّي التشريح بإغلاق جرحِ التشريح بالجثمان وخياطته، وقمتُ أنا بكتابة إشارة انتهاء التشريح، وأيضًا ذكرت فيها أنَّ سبب الوفاة مازال قيد البحث.

كنتُ على وشكِ الخروج أنا وفنّي التشريح من المشرحة، ولكنْ فجأة تناهى إلى مسامعنا صوتُ انفجار عالٍ وصياح من خارج المشْرحة، فقمتُ بفتح باب المشرحة وفوجئتُ بهرَج ومرَج بالخارج معَ انبعاث غازات كثيفة بالقرب من المشرحة، فقمت على الفوْر بإغلاق باب المشرحة مرَّة أخرى، وقمتُ بالاتصال



بالضابط المسئول عن تأمين المشرحة، فأجابني بصوت يغلب عليه العصبية: أيوه يا دكتور، خلّيك مكانك جوَّه المشرحة، وإوعى تفتح الباب، واقفلَ الشبابيك، وافتح الشَّفاطات اللي عندك بسرعة علشان إحنا ضربنا غاز مسيِّل للدموع علشان نفرق الناس، وكان حصل فيه شغب قدّام المشرحة وحاولنا نفرَّقهم بالذوق ومرضيوش.

قلتُ في صوت يغلبُ عليه التوتر والانزعاج: لا حولَ ولا قوة إلا بالله.. ينفع يعني اللي بيحصل ده؟ طب كنتم خرجونا الأول.. أنا دلوقت هقعد أعمل إيه في المشرحة معَ جثة، وفي مكان مقفول، وأنا من الصبح قاعد رايح جاي على السكة؟

قال الضابط في صوتٍ حاد: معلشّ يا دكتور، كلّ ده علشان تأمينك.. أنتَ لو خرجت دلوقتِ ممكن يحصل لحضرتك حاجة لا قدَّر الله، خاصَّة مع حالة الهياج والهرَج والمرج دي.. خلّيك عندك، وإنْ شاء الله أأمن المكان دلوقتٍ وأمشّي الناس وهاجي آخدك بنفسي.

لم يكنْ أمامي سوى الانصياع لحديثِ الضابط، ولم أكن مستعدًّا للمخاطرة بالخروج من المشرحة في ظلٍّ تلك الفوضى العارمة التي تجتاح المكانَ بالخارج، وظللتُ بالمشرحة لمدَّة زادتْ عن الساعتين، وخلالَ هذه الفترة قمت بالتواصل أكثر من مرة مع مديرِ الإدارة حتى يكون على علمٍ بآخر التطورات.



وبعدَ ساعتين من الانتظار تلقَّيت اتصالًا من الضابط المسئول عن التأمين يخبرني بأنه بإمكاني أنْ أخرج من المشرحة، وأنَّ قواتِ التأمين في انتظاري في الخارج وسوف ترافقنا حتى خروجنا من المستشفى.

وما كدتُّ أخرج من المشرحة حتى تلقَّيت اتصالًا من مدير الإدارة وهو يقول باقتضاب: معلش يا دكتور مصطفى.. خليك عندَك في المشرحة في حالة ثالثة، جيّالك حالًا ليها علاقة بالقضية اللّي أنتَ شغّال فيها.

حاولتُ الاستفسار منه، وقلت: حالة إيه يا دكتور؟ مش كفاية كده واللّا إيه؟ أنا فعلًا تعبت، وبقالي أكتر من ساعتين محبوس في المشرحة.

ردَّ مديرُ الإدارة بتفهُّم وقال: آسف جدًّا والله يا دكتور مصطفى.. بسّ الحالة عاجلة وأنا عرفت إنّ الوضع الأمني عندك مش مستقرّ، ومش هقْدر أبعت زميلك عندك.. فمعلشّ، ربنا يقوّيك، ودقايق ووكيل النيابة المسئول عن القضية هيكلمك.. ربنا معاك.

انتهتِ المكالمة، وما هي إلا دقائقُ معدودة حتى قام السيد وكيل النيابة المسئول عن القضية بالاتصال بي، وإخباري أن الجثة الثالثة هي لشابٍّ من الذين قاموا بالاعتداء على صاحب الورشة، وأنه عقبَ وفاة صاحب الورشة قامت أسرة صاحب الورشة بمطاردة هذا الشابّ، ظنًّا منهم أنه هو مَن قام بقتل صاحب الورشة، إلا إنَّ

الشاب فرَّ مذعورًا، وأثناء فراره قام بالقفزِ في الترعة وغرقَ على الفور، وأنَّ هذه الحالة ينبغي تشريحها للتأكد من أنَّ هذا الشاب قد غرقَ دونما وجود شبهة جنائية.

كانتِ الأحداثُ متسارعة لدرجةٍ تفوق كلَّ تصوراتي، وكان فني التشريح المرافق لي قد نالَ منه التعب فأخبرته أنه بإمكانه أن يخرجَ من المشرحة ليشعلَ سيجارة، ويتناول قدرًا من الطعام لحين وصول الجثة الثالثة، بينما قمتُ بالتوجه رفقة القوة الأمنية المسئولة عن تأمين المكان إلى المسجد، وقمتُ بالاغتسال والوضوء وأداء صلاة العصر، ومحاولة الاسترخاء قليلًا داخل المسجد لحين وصول الجثمان الثالث.

مرَّت حوالي ساعة قبلَ أن أتلقى اتصالًا من السيد وكيل النيابة المسئول عن القضية ليخبرني أنه على وشك الوصول إلى المشرحة رفقةَ الجثمان الثالث، فتوجَّهت على الفور أنا وفني التشريح إلى المشرحة، وقمنا بإعداد المكان لاستقبال الجثمان الثالث، وما هي إلا دقائقُ حتى دخل السيد وكيلُ النيابة رفقةَ قوة التأمين التي تحمل جثمان الشخص الثالث ووضعوها على طاولةِ التشريح، وقام السيد وكيلُ النيابة بتحيتي، وقال بصوتٍ يحاول أن يبدو عليه المرح: مساء الخير يا دكتور مصطفى.. عرفت إنّك النهارده قضيت اليوم كله هنا.. ربّنا يكون في عونك.. شكل حدّ حسَدك.



ابتسمتُ وقلت له: الحقيقة فعلًا حدّ حسدني.. بسّ معتقدش إنّ الحسد لوحده هوّ سبب إنّ أنا أشرَّح 3 جثث في يوم واحد!

قال وكيلُ النيابة: عندك حقّ.. فعلًا الوضع النهارده صعب.. وفي قلق كبير جدًّا في البلد.. علشان كده هتلاقي الأمن المركزي مُنتشر فيها، وإنْ شاء الله تكون دي آخر جثة، وإحنا عاملين ما يشبه حظْر تجوال دلوقت في البلد، وأنا طلّعت قرار بضبطِ وإحضار أيّ حدّ هيعمل تجمْهر، وكمان عملت ضبط وإحضار لحوالي 20 شخص من اللّي مشتبه في إنهم تسببوا في مقتل صاحب الورشة والشاب الغرقان.

قلتُ لوكيل النيابة: أعانك اللهُ معالي المستشار، بسّ حضرتك جاي بنفسك مع الجثة ليه خير؟

قال وكيلُ النيابة: أنا كده كده كنت هعايِن الجثة.. فقُلت أبقى مع حضرتك نعاينها معَ بعض ونخلص التشريح بسرعة وأوصّل حضرتك لغاية أول الطريق إنْ شاء الله، ولولا إني عارف إنّ حضرتك مرهَق، ولسَّه قدّامك سكة سفر.. كنت قلت نشرب القهوة ونتغدى في مكتبي.

ابتسمتُ وقلت لوكيل النيابة: كتّر خيرَك يا فندم.. يا دوبَك نلحَق بسرعة نشرّح الجثمان علشان نلحق نرجع الادارة.



وبالفعل، قمتُ أنا وفني التشريح بالبدْء في التعامل معَ الجثمان الثالث، وكانت لشابٍّ في حوالي الخامسة والعشرين من العمر، يرتدي جلبابًا لونُه كحلي، وكانت ملابسه مبلَّلة بالكامل، وبإزالة الملابس تبينّا أنَّ الجثمان مازال في حالة رخاوة مع وجود رغاوي بيضاء كثيفة تخرجُ من الفم والأنف، وتجعُّد في جلد اليدين والقدمين معَ وجود زُرقة بكلٍّ من أظافر اليدين والقدمين، وكانتْ هذه العلامات في مجملها تؤكد بصورةٍ كبيرة أنَّ الوفاة نتيجة أسفكسيا الغرق.

وقمتُ بفحص الجثمان جيدًا، ولم أتبيَّن به أيَّ معالم إصابية خارجية، وعقب ذلك قمتُ بالبدء في تشريح الجثمان ولم أتبين به أيضًا أيَّة معالم إصابة داخلية قد تؤدّي إلى الوفاة، وتبينت وجودَ مياه وتلوثات طينية في مجري الهواء وفي المعدة مع انتفاخ شديدٍ بالرئتين وسيولة في الدم، مما يؤكد أنَّ الوفاة نتيجة أسفكسيا الغرق.

انتهينا من التشريح سريعًا، وقام فنّي التشريح بإغلاق جرح التشريح، وكان ذلك كله في حضور السيد وكيل النيابة الذي قمتُ بإعطائه إشارةَ انتهاء التشريح، والتي ذكرت فيها صراحةً أنَّ الوفاة نتيجة الغرق، ولا توجد إصابات، وكنت أقصد بذلك أنْ أساهم في تقليل حدَّة التوتر التي تشوب المكان؛ حيث إنَّ وفاة الشاب الثالث



نتيجة الغرق، وكونها بصورة كبيرة قضاءً وقدرًا؛ ربَّما يهدِّئ أسرته، ولا يكون هناك مدعاةٌ لأيٍّ تصرفات انتقامية، وبالتالي لن تكون هناك مزيدٌ من الجثث التي تأتي للمشْرحة.

وعلى الفور، تبادلتُ التحية مع السيد وكيل النيابة، وقمتُ بمغادرة المشرحة رفقةَ فني التشريح وركبنا سيارة الإدارة، وعدْنا إلى الإدارة، وكانت الساعة حوالي الثامنة مساءً تقريبًا عندَ وصولنا إلى الإدارة، وبالطبع كانت أبواب الإدارة مغلَقة، فقمنا بفتحها ووضْع متعلقاتنا، وأسرعنا بالانصراف والعودة إلى منازلنا.

عدتُّ إلى منزلي وأنا في أشدِّ درجات الإرهاق والتعب، وما إن رأتني زوجتي وملابسي ملطَّخة بالدماء حتى أصابها الذعرُ وقالت: خير! في إيه؟ إيه اللي أخَّرك كده؟ وقعدتَّ اتَّصل بيك كتير ولقيت موبايلك مغلق؟ وإيه اللي على هدومك ده؟ أنتَ كويس؟ إيه اللي معوَّرك؟

ابتسمتُ بهدوء وقلت لها: لا أبدًا متقلقيش يا حبيبتي، ده مش دمي الحمدُ لله، ومعلش موبايلي فصل شحن وجاتلي النهارده 3 مأموريات تشريح ورا بعْض في نفس المكان، وكان في قلق وضرب غاز مسيل للدموع وتجمْهر، وكان يوم فعلًا صعب وغريب.

شهقتْ وقالت: يا لهوي! كلّ ده حصل؟ هما عارفين إنّ أنتَ مسافر أمريكا واللّا إيه فقالوا يودَّعوك؟



ابتسمتُ وقلت لها: أيوه يا ستي.. ما هو أصلًا اليوم ابتدى بواحد إدّاني عين بسبب موضوع أمريكا ده، والأرّ اشتغل وعينك ما تشوف إلا النور!

قالتْ في تأثر: معلش.. ربّنا يكفيك كلّ شَر ويعينك.. محدِّش عارف أنتَ تعبت قدّ إيه عشان تاخد الدورة التدريبية دي.. كلّه بيبصّ من برَّه.. المهمّ هات هدومك علشان أغسلها، وخُش خدلك دُش على ما أجهز لك الغدا.

قلتُ لها: تسلمي ربّنا يكرمك.. أيّ حاجة خفيفة كده آكلها علشان ألحق أنام شوية علشان ورايا بكره شغل كتير.

وما هي إلا دقائقُ معدودة حتى كنت أتناول أولَ وجبة لي منذ حوالي 12 ساعة، ثمَّ صليت العشاء وخلدت للنوم ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أستيقظُ في صباح اليوم التالي في تمام الساعة العاشرة صباحًا، وبالطبع كنت متأخرًا على العمل، ولكنني كنت مرهَق جدًّا نتيجة ما حدثَ في اليوم السابق ولم يكن بمقدوري الاستيقاظُ مبكرًا تحت أي ظرف.

قمتُ بالاغتسال وارتداء ملابسي سريعًا، وتوجَّهت إلى إدارة الطب الشرعي حيث قمتُ أولًا بالتوجه إلى مكتب مدير الإدارة واعتذرتُ له عن تأخري، وشرحت



له الأحداثَ التي حدثت في اليوم السابق، وتبادلنا الرأي حول طريقة التعامل مع الفحوصات التي تخصُّ كلَّ جثة على حدة.

ثمَّ توجَّهت إلى مكتبي وقمتُ بكتابة الاستمارات الخاصَّة بتحليل العينات المأخوذة من جثمان الطفل ومن جثمان صاحب الورشة، بينما كان سببُ وفاة الشابِّ الغريق واضحًا، وفضَّلت عدم تأخير تقرير الشاب الغريق دون داعٍ.

عقبَ الانتهاء من إعداد الاستمارات الخاصَّة بالعينات وترتيب العينات، قمتُ بالاتصال بالزملاء في المعمل الكيماوي والمعمل الطبي، والتأكيد على سرعة الانتهاء من فحصِ العينات قدرَ المستطاع، وإرسال نتائج الفحوصات فور الانتهاء منها، نظرًا لأنَّ هذه الحالات يتوقَّف عليها الكثيرُ من التحقيقات، وهناك الكثيرُ من الأشخاص المقبوض عليهم على ذمة هذه القضية، كما كان تركيزي على الانتهاء سريعًا من فحص المسْحات الشرجية التي قمتُ بأخذها من الطفل المتوفى حتى يتم تأكيد أو نفي حدوث اعتداء جنسي عليه بواسطة صاحب الورشة.

كما قمتُ بالاتصال بالسيد وكيل النيابة المسئول عن القضية، وسألته عن أية معلومات جديدة تخصُّ القضية ربما تفيدني في حلِّ لغز القضية، ومعرفة سبب وفاة



الطفل أو صاحب الورشة، فأخبرني السيد وكيل النيابة أنه بالتحريات تمَّ التوصل إلى أنَّ الطفل المتوفى كان يعمل لدى صاحبِ الورشة منذُ حوالي سنة، ويقوم بأعمال يدوية خفيفة، وأنَّ الطفل وبسؤال أسرته كان يعاني من نوباتٍ صرعيَّة على فترات متباعدة، وأنه نظرًا لغلاء الدواء وسوء الحالة المادية لأسرة الطفل فلم يكن يتعاطى دواءَ الصرع بصورة منتظمة، وكانت هذه نقطةً في غاية الأهمية، وربما يكون لها دخل في إحداث وفاة الطفل من وجهة نظري كطبيب شرعي.

أمّا عن صاحب الورشة المتوفى، فكانتِ التحريات تشير إلى أنه شخصٌ بدون سوابق، وسمعته طيبة، ولا توجد أية شبهات حولَه، وأفادت أسرته أنه كان يعاني من مرض السكر وارتفاع ضغط الدم وقصور في الشرايين التاجية، وكان يتعاطى أدوية لهذه الأمراض، وكان هذا أيضًا يتَّفق بصورة كبيرة معَ ما وجدتُّه أثناء التشريح من وجود تضخم بالقلب وضيق في الشرايين التاجية.

كانتْ مكالمتي مع السيد وكيل النيابة المسئول عن القضية قد فتحت أمامي أبوابًا مغلقة، وقدَّمت بصورة كبيرة مفاتيح لحلٍّ لغز وفاة كلٍّ من الطفل وصاحب الورشة، إلا إنَّ الحكمَ النهائي والفيصل سيعود لنتائج التحاليل والفحوصات المعملية والكيماوية التي مازلت في انتظارها حاليًا.



وللأسف مرَّ حوالي أسبوعين ولم تصلني أيةُ نتائج معملية، وفي نفس الوقت كانت هناك اتصالاتٌ عديدة مباشرة وغير مُباشرة تصلني من بعضِ الأشخاص ذوي الصلة بأسْرة الطفل المتوفى، وأسْرة صاحب الورشة المتوفى، وكان الهدف الواضح مِن هذه الاتصالات هو محاولةَ توجيهي إلى استنتاجات معينة، ومحاولة استمالتي إلى طرف دون آخر، لا سيَّما مع وجود محاولاتٍ للصلح، وعقد جلسات عرفية بين الأسَر المتناحرة للتنازل عن المحاضر والقضايا المتبادلة، وكانت محاولات التواصل معي تجعلني شديدَ التوتر، وتشعرني بعدم الراحة؛ حيث إنني لم أتعوَّد على مثل هذه الاتصالات، كما أنني أعلم أنني مسئول أمامَ الله عن إظهار الحقيقة، وعن دمِ كلِّ متوفى، ولن أتهاون تحت أيِّ ظرف في قول الحقيقة والحفاظ على حق المتوفيين.

مرَّ أسبوع آخرُ قبل أن تصلني أولُ النتائج، وكانت نتيجةُ فحص المسحات الشرجية التي قمت بأخذها من الطفل المتوفى واتَّضح فيها عدمُ وجود أيِّ آثار لسائل منوي، وهو ما يؤكد عدمَ وجود شبهة اعتداء جنسي على الطفل المتوفى بواسطة صاحب الورشة.

وعقبَ ذلك بيومين ورَدتني نتائجُ تحاليل المعمل الكيماوي الخاصَّة بتحليل السموم والمخدرات بالعينات المأخوذة من جثمان الطفل المتوفى، وكانت خاليةً من



أيَّة سموم أو مخدرات، ولكن كانت العينات إيجابية لوجود مادة (فالبرويك أسيد - Valproic acid) وهي مادةٌ تستخدَم لعلاج الصرع، والاسم التجاري للدواء (ديباكين)، وتبين أن تركيز هذه المادة في دم الطفل المتوفى كانت أقلَّ من التركيز العلاجي، وهو ما يعني أنَّ الطفل لم يكن يتعاطى دواء علاج الصرع بصورة منتظمة، وبالتالي مِن المرجَّح أنه كان يعاني في الفترةِ الأخيرة من نوبات صرعية متكررة نظرا لعدم انتظامه على تعاطي الدواء.

وعلى الجانب الآخر، كانتِ العينات المأخوذةُ من جثمان صاحب الورشة خالية من أية آثار للمخدرات أو السموم التي من شأنها إحداث الوفاة.

وبعدَ أسبوع، وصلتني النتائجُ النهائية للفحص الباثولوجي للعينات المأخوذة من كلٍّ مِن جثمان الطفل المتوفى وصاحب الورشة المتوفى، وحملت في طياتها حلَّ لغز وفاة كل منهما.

فبالنسبة للطفل المتوفى أظهرَ الفحصُ النسيجي والباثولوجي للعينات وجودَ مظاهر مرضية لنقص أوكسجين حاد بالمخ مع وجودِ تصلُّب في مناطقَ من قشرة المخ، وهي علاماتٌ غالبًا ما يتمُّ مشاهدتها في حالات الصرع، كما أوضحت الفحوصات وجودَ تورُّم واحتقان شديد بكلٍّ من المخ والرئتين، وكان هذا يعني



أنَّ وفاة الطفل بسبب حالته المرضية، فقد أصابته نوبة صرعيَّة طويلة تسمَّى باللغة الإنجليزية (Status epilepticus) وفيها تستمرُّ النوبة الصرعية لمدة حوالي خمسة دقائق يحدث فيها انقباضُ كافَّة عضلات الجسم بما فيها عضلات التنفس، مما يؤدّي إلى حرمان الجسم خاصة المخ من الأوكسجين، مما قد يسبِّب وفاةَ الطفل، ويبدو أنَّ عدم انتظام الطفل على أخذ الدواء المضاد للصرع أدى إلى حدوث هذه الحالة، أما بالنسبة للخدوش التي وُجِدت على وجْه الطفل فمن المرجَّح أنها حدثت نتيجةَ سقوطه على الأرض أثناء حدوث النوبة الصناعية.

وبالنسبة لنتائج فحص العينات التي أُخِذت من جثمان صاحب الورشة فقد أظهرت وجودَ احتشاء وجلطة بعضلة القلب مع وجود ضيق شديد في الشرايين التاجية المغذية للقلب، وهو ما يعني أن وفاة صاحب الورشة كانت نتيجة جلطة بالقلب، وهي حالةٌ مرضية لا دخلَ لأحد في حدوثها، وأنه نتيجة التوتر الذي كان عليه صاحبُ الورشة قبل وفاته مما أدى هذا إلى إجهادِ قلبه وحدوث هذه الجلطة، بينما السَّحجات والخدوش التي بيديْه هي نتيجة سقوطه على الأرض عقب وفاته مباشرة، وبالتَّالي فهو لم يتوفَّ نتيجة أي إصابة أو اعتداء.

كانتِ النتائج كلها والمشاهداتُ التشريحية تتَّفق مع



نتائج العينات، وعلى الفور قمتُ بإعداد التقارير الطبية الشرعية الخاصة بالحالات، وقمتُ بإرسالها إلى النيابة المختصة، وما إن وصلتِ التقارير النيابة حتى تلقيت اتصال من السيد وكيل النيابة المسئول عن القضية، وقال بصوتٍ تظهر عليه الدهشة: إيه ده يا دكتور مصطفى؟ حضرتك كلّ التقارير فيها الوفاة غير جنائية.. إزاي يعني؟ والمشتبَه فيهم اللي عندنا دول وأقوال الشهود؟

قلتُ له بصوت هادئ: والله يا معالي المستشار أنا فعلًا زيَّك كنت متوقع إن يكون في إصابات أو سبب جنائي للوفاة، ولكنْ سبحان الله الثلاث وفيات كانت مرضيَّة أو بصورة عَرَضية.. بالنسبة للطفل واضح إن هو كان بيتعالج من الصرع، ونظرًا لأنَّ أسرته فقيرة وغير متعلمة فكانت غير منتظمة في توفير أدوية الصرع ليه، وفعلًا نسبة دوا الصرع في دمه كانت قليلة جدًّا، وأقلّ من المفروض، وللأسف ده تسبَّب إنه يجيله نوبة صرعية طويلة يوم الواقعة سبِّبت له في نقص الأكسجين اللّي رايح للمخ، وبالتالي حدثت وفاته بصورة فورية، ودي حاجة قضاء وقدر، وحالة مرضية ومحدش متسبِّب فيها، وإن كان في حدّ المفروض يتحاسب فهي أسْرة الطفل اللي المفروض كانوا يوفّروا له الدوا بصورة منتظمة.. مش كفاية إنهم مشغلينه في ورشة وهو لسّه طفل صغير؟! لأ.. كمان للأسف مكانوش موفّرين له العلاج



المناسب.

قال وكيلُ النيابة في حزن: والله دي مأساة يا معالي الدكتور.. طيّب وبالنسبة للمسحات الشرجية أنتَ بتقول إن هي سلبية؟

قلتُ له: أيوه فعلًا المسحات الشرجية سلبية، ومفيش فيها أثر للحيوانات المنوية، والاتساع اللي كان مفتش الصحة بيقول إنّه موجود في فتحة الشرج كان عبارة عن ارْتخاء للعضلات بعدَ الوفاة ومكانش في اعتداء جنسي، وللأسف السيد مفتش الصِّحة استعجل إنه بلّغ أهل الطفل، ويمكن ده اللي سبّب حالة الفوضى اللي حصلت.

قال وكيل النيابة: آه فعلًا للأسف.. بسّ منقدرش نوجِّه له أيّ اتهام.. طيب بالنسبة لصاحب الورشة، حضرتك متأكد إن مَفيش أيّ أثر للاعتداء الجسدي عليه، أو إنّ وفاته إصابية نتيجة تعرضه للضرب؟

قلتُ لوكيل النيابة: الحقيقة لا خالص.. هوّ كان في خدوش وسحْجات بسيطة في الإيدين والرجلين وممكن تكون حصلت نتيجة سقوطه على الأرض عقبَ وفاته مباشرة.. إنما الأكيد إنّ سبب وفاته كان مرض في القلب وجلطة في الشرايين التاجية، وهوّ أصلًا كان مريض ضغط وسكر، وبياخد أدوية لكلّ الحاجات دي، وطبعًا مع الضغط العصبي والجري وهروبه لبيته ومحاصرة أهل



الطفل لبيته؛ كلّ ده عمل ضَغط عصبي عليه، وتسبَّب في إنه هو يحصله جلطة في القلب.. إنما وفاته مرضية قضاء وقدر.

قال وكيلُ النيابة: سبحان الله! يعني قدَر الطفل إنّ هوّ يموت بنوبة صراعية، وإنّ الراجل صاحب الورشة يموت بجلطة في القلب، والشابّ اللي حاول يعتدي على صاحب الورشة يهرب وينطّ في الترعة ويغرق، وكده القضية تخلص بدون وجود شبهة جنائية في وفاة التّلاتة وميبقاش عندنا متَّهمين؟! وكلّ القلق اللي حصل ده وللأسف كان سببه جهل الأهل البلد والإشاعات وحالة العصبية اللي كانوا فيها.

رددتُّ بحزن على وكيل النيابة: فعلًا معالي المستشار.. الثلاث وفيات كانوا كلهم قضاء وقدر، ومع هذا عمل قلق كبير جدًّا وذُعر في البلد، وبكده حضرتك تقدَر تقفل القضية، ولو عندك حدّ مُشتبه به تقدر تفرج عنه حسب ما تشوف، إنما أنا بالنِّسبة لي الوفيات كلها مرضية أو قضاء وقدر زيّ غرق الشاب الأخير.

عقبَ نهاية المكالمة مع السيد وكيل النيابة، كنت أشعرُ بارتياح شديد بانتهاء القضية على هذه الصورة، وعلى الرغم من حزني مِن وفاة ثلاثة أشخاص في يوم واحد، وبصورة مؤلمة، إلا أنّني حمدتُّ الله أنَّ وفاة أحدهم لم تكن جنائية ولا يوجد شخص سوفَ يحمل وِزر



دمِ أحد من الضحايا، وأنه لا توجد فرصة لحدوث جرائم ثأر بين أُسر المتوفين.

عقبَ ذلك توقَّفت تمامًا عن أخذ أية قضايا أخرى، وتقدَّمت بطلب إجازة إلى جهة عملي من أجل الذهاب إلى المنحة التَّدريبية بأمريكا، وكنت أدعو الله في كلِّ لحظة ألا يصيبني الحسد مرَّة أخرى، مما قد يعرقل سفري إلى أمريكا؛ حيث إنَّني وبعدَ هذه القضايا العصيبة تأكدتُ فعلًا أنَّ الحسد ربما يجعلك تقضي يومًا عصيبًا في المشرحة.. يومًا داميًّا لا نهاية له!



هاتفُ الرُّعب

من الجيِّد أن تمتلك هاتفًا محمولًا، ومن الرائع أن يكون حديثًا، وذا إمكانيات هائلة، ولكنْ من السيّئ أن تكون طبيبًا شرعيًّا يحمل هاتفًا محمولًا حديثًا !

في البداية، سيكون هاتفُك مليئًا بالصور المرعبة والمؤذية للعين والنَّفس.. صور أشلاء ورفات ضحايا.. صور لجثث متعفنة.. صور للمقابر وشواهد القبور.. وصور أخرى لا يمكن التصريحُ بطبيعتها حفاظًا على مشاعركم، وكثيرًا من صور ملفات التحقيقات والمعلومات التي يشيب لها الولدان !

ثمَّ لن تحمل المكالماتُ الواردة إليك سوى أخبارٍ



سيئة.. وأقلّها سوءًا هو الاستدعاءات التي لا تنتهي للمثول أمام جهات التَّحقيق كالنيابة وغيرها، ثمَّ المثول للشهادة والمناقشة أمامَ محاكم الجنايات، ثمَّ سيزداد الأمرُ سوءًا لاستدعائك لمعاينة موقع الجريمة، وكثيرًا ما سيتمُّ استدعاؤك لتشريح جثمان في قضية شائكة بصورةٍ عاجلة لا تحتمل التأجيل!

وبالتأكيد ستأتي الاتصالاتُ في لحظات الراحة والاسترخاء، وفي أوقات غير مناسبة على الإطلاق.. ساعة العصاري.. ساعات الفجر الأولى.. يوم العيد الصبح.. يوم عيد ميلادك.. آخر يوم قبل قيامك بإجازتك السنوية، فالأسطورة تقول (قال يا قاعدين يكفيكوا شَرّ الجايين)!

ومِن باب الأخبار السيئة التي ستصلك عبرَ المحمول (لقينا باقي الجثة في الترعة وعاوزينك تيجي تشوفها).. (جبنا الواد ابن ال %$#@&* واعترف إنّه اغتصَب الضحية قبل ما يقتلها).. (تحاليل السموم سلبية وشوف بقى سبب للوفاة الغامضة دي).. (الأم هيّ اللي قتلت طفلها انتقامًا من طليقها).. (عندنا استخراج لجثة السبت الجاي ولازم تبقى في الموقع من بدري).. (إلحقني يا صديقي عملت عملية لمريض وأهله اشتكوني وأنا مطلوب في النيابة.. أعمل إيه؟).. (جهّز نفسك لحضور الإعدام يوم الاتنين والسواق



هيفوت عليك خمسة الفجر) !

باختصار، هاتفك سيكون اللعنةَ التي ستلازمك كطبيبٍ شرعي طالما مازلتَ على قيد الحياة، ومازلت تحمل لقبَ (طبيب شرعي)!

أمّا الخبرُ الوحيد الذي ربما يبدو سعيدًا، وسيأتيك عبرَ هاتفك فسيكون (مبروك يا دكتور.. ورق التقاعد بتاعك خِلص).. ولكن حتى هذا الخبر لن يمحوَ آلافَ الذكريات المرعبة التي علقت بروحك وذاكرتك!



الخاتمة

هل هناك أجزاءٌ أخرى لهذا الكتاب؟

لقد سمعتُ هذا السؤال مرارًا وتكرارًا، وأعتقد أنني سأسمعه كثيرًا بمشيئة الله.

والإجابة دائمًا هي.. نعم، بإذن الله هناك أجزاءٌ أخرى إن قدَّر الله لي البقاءَ في هذه المهنة الكئيبة التراجيدية المسماة بـ (طبيب شرعي).

فطالما مازال هناك بشرٌ يخطئون ولم يتحوَّلوا إلى ملائكة؛ فستكون هناك الكثير من الآثام والخطايا لاقترافها.

وطالما كان هناك شرٌّ في النفوس لا يردعه قانون، ولا يقوِّمه دين أو شرع؛ فستكون هناك كثير من الجرائم لارتكابها.

وطالما كان هناك مَن يبحثُ عن الحقيقة، ويسعى لإرساء العدالة والقصاص من المذنبين؛ فسيكون هناك أمل في إنصاف المظلومين قدر المستطاع.

وطالما كنتُ أنا الشاهدَ الأخير على كلِّ هذا فسأظلُّ أحكي لكم ما أرى وما أسمع قدرَ استطاعتي، وإن أخفيت عنكم شيئًا فهوَ لأنكم لن تستطيعوا تصديقَه أو احتماله!



نبذةٌ عن مؤلفِ السلسلة القصصية:

-د/ محمد جاب الله- استشاري الطبِّ الشرعي والسموم الإكلينيكية.

-حاصل على درجة الدكتوراه في الطبِّ الشرعي من جامعة (ناجويا سيتي) في اليابان.

-يعمل كطبيبٍ شرعي منذ 15 عامًا في كلٍّ من مصر واليابان والمملكة العربية السعودية.

-هذه هي ثاني سلسلة قصصية من تأليفه.

-معلومات التواصل: الإيميل Drgaba97@hotmail .com



Whatsapp No. 01010863687-

